مقاصد

الدَّعوَةِ النَّبَوِيَّةِ

وأبرز تطبيقاتها المعاصرة

(دراسةُ تحليلٍ واستنباط من السيرة النبوية)

إعداد

أ. د. عابد بن عبد الله الثبيتي

مقاصد

الدَّعوة النَّبويَّة

وأبرز تطبيقاتها المعاصرة

ح عابد عبد الله الثبيتي، ١٤٤٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الثبيتي، عابد بن عبد الله

مقاصد الدعوة النبوية / عابد بن عبد الله الثبيتي - الطائف، ١٤٤٤هـ.

١٤٠ ص، ١٧×٢٤سم

ردمك: ٩-٦٣٥٨-٠٤-٦٠٣-٩٧٨

١- السيرة النبوية أ. العنوان

ديوي: ٢٣٩ ١٤٤٤/١١٧٥٠

رقم الإيداع: ١٤٤٤/١١٧٥٠

ردمك: ٩-٦٣٥٨-٠٤-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى: ١٤٤٥هـ - ٢٠٢٣م

حقوق التأليف والنشر والترجمة لهذا الكتاب غير محفوظة ولا تنطبق عليه مواد نظام حقوق التأليف والنشر شريطة الإبقاء على اسمه واسم مؤلفه وعدم التغيير في مضمونه

مقاصد
الدَّعوَةِ النَّبَوِيَّةِ

وأبرز تطبيقاتها المعاصرة

(دراسةُ تحليلٍ واستنباط من السيرة النبوية)

إعداد

أ. د. عابد بن عبد الله الثبيتي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على نبي الله محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا، **أما بعد:**

لقد بذل العلماء جهدًا كبيرًا في استنباط مقاصد الشريعة الإسلامية العامة، ثم تتابعت جهودهم في استنباط المقاصد الخاصة لفروع الشريعة، والحق أنَّ أحظى الفروع بالتأصيل والتقعيد واستنباط المقاصد: الفقه، حيث أصبح دارسه لا يجد صعوبة في إدراك مقاصد الأحكام وحِكَمِ التشريع فيها، أما غيره من الفروع فقد تأخرت دراسة مقاصدها كثيرًا، حتى بدأت بذلك الدراسات الأكاديمية، وهذا البحث أحدها، وقد سميته: مقاصد الدعوة النبوية وأبرز تطبيقاتها المعاصرة.

أسباب اختيار البحث:

يمكن حصر أسباب اختيار هذا الموضوع في سببين رئيسين هما:

١) حاجة علم الدعوة إلى التأصيل كسائر العلوم الشرعية.

٢) حاجة الدعاة إلى الله تعالى لتأصيل الدعوة وبيان مقاصدها، خاصة من لم يكن منهم مختصًّا في العلوم الشرعية.

أهمية البحث وأهدافه:

تظهر أهمية البحث في كون علم الدعوة إلى الله تعالى حديث النشأة الأكاديمية، فما زال محتاجًا إلى تأصيل مسائله، وبيان المقاصد الخاصة للدعوة الإسلامية.

ويزيد البحث أهمية حاجة كثير من الدعاة إلى الله له ولأمثاله من الدراسات التأصيلية، لكون أكثرهم ليسوا مختصين في العلوم الشرعية، مما يجعلها مصوِّبة لكثير من جهودهم الدعوية؛ لذا كانت أهداف البحث على مايلي:

١) استنباط مقاصد الدعوة النبوية.

٢) تحرير حكم الاستفادة من مقاصد الدعوة النبوية في العصر الحاضر.

٣) بيان أبرز التطبيقات المعاصرة للمقاصد الدعوية.

تساؤلات البحث:

تتلخص تساؤلات البحث في الآتي:

١) ما المراد بمقاصد الدعوة النبوية؟

٢) ما أبرز مقاصد الدعوة النبوية؟

٣) ما أبرز التطبيقات المعاصرة للمقاصد الدعوية؟

الدراسات السابقة:

وجدت عند البحث دراسة علمية في قسم الدعوة والثقافة الإسلامية بجامعة أم القرى بعنوان: مقاصد الدعوة إلى الله في الكتاب والسنة، للباحث: عبد الله بن علي القرني، وقد بذل الباحث فيها جهدًا مشكورًا، ولكن يؤخذ عليها أنَّها لم تركِّز على استنباط المقاصد الخاصة للدعوة إلى الله، وإنما ذكرَت المقاصد العامة للشريعة الإسلامية وفرَّع الباحث عليها بذكر النماذج والتطبيقات الدعوية التي تحققها، مما أضعف ارتباطها بالتخصص الدقيق الذي تبحث فيه، وسيتبين المقصود عند الاطلاع على هذا البحث الذي بين يديك ومقارنته بها.

منهج البحث، وخطواته:

لقد رأيت اختيار المنهج التحليلي للمواقف الدعوية النبوية في العهدين: المكي، والمدني، واستنبطت من مجموعها ما غلب على ظني أنَّه مقصد من مقاصد النبي ﷺ في دعوته، خاصة إن وجدت له شواهد تؤكد ذلك. وقد سلكت في إعداده الخطوات التالية:

* جمع النصوص والمواقف والأحداث المتعلقة بالدعوة النبوية من كتب السنة والسير، وتصنيفها وتبويبها..
* تحليل المواقف واستنباط المقصد الدعوي الخاص من مجموع المواقف النبوية المتشابهة، وتدوِينه، ثم أعقب بعد ذلك بذكر بعض الشواهد التي توحي باعتباره مقصدًا للدعوة النبوية.
* ألحقت بالمقاصد الدعوية أبرز تطبيقاتها المعاصرة؛ ليزداد وضوحها ورسوخها.
* كتابة الآيات القرآنية بالرسم العثماني، ونسبتها إلى سورها من القرآن الكريم بذكر السورة ورقم الآية بخط صغير في متن البحث بعدها مباشرة.
* تخريج الأحاديث النبوية وعزوها لمظانها من كتب السنة، فإن كانت في الصحيحين أو أحدهما فأذكر المصدر واسم الكتاب والباب ثم رقم الحديث، وأمَّا إن كانت في غيرهما فأعزوها إلى مظانها من كتب السنة، وأعقِّب بذكر حكم المختصين عليها -حسب الإمكان-، كالشيخ محمد ناصر الدين الألباني، ومحقق مسند الإمام أحمد وصحيح ابن حبان: الشيخ شعيب الأرناؤوط، وحسين سليم أسد، المحقق لمجموعة من كتب السنة، وغيرهم من أهل الاختصاص، واخترت من طبعاتها ما أضيفت لها أحكام العلماء على الأحاديث؛ ليكون الترقيم للحديث والحكم عليه واحدًا.
* ترجمت لبعض الأعلام غير المشهورين وأعرضت عمن سواهم طلبًا للاختصار.

خطة البحث:

يتكون البحث من مقدمة، وفصلين، وخاتمة، وهي على النحو الآتي:

المقدمة: وفيها: أهداف البحث وأهميته، وأسباب اختياره، وتساؤلاته، والدراسات السابقة له، ومنهجه، وخطته.

الفصل الأول: المدخل إلى مقاصد الدعوة النبوية

المبحث الأول: تعريف المقاصد الشرعية

المبحث الثاني: تعريف مقاصد الدعوة النبوية، والعهد النبوي

الفصل الثاني: مقاصد الدعوة النبوية، وفيه خمسة مباحث تنتظم في ثناياها مقاصد الدعوة النبوية، وهي على النحو التالي:

المبحث الأول: المقاصد الدعوية المتعلقة بكيان الدعوة وتطبيقاتها المعاصرة.

المبحث الثاني: المقاصد الدعوية المتعلقة بمضمون الدعوة وتطبيقاتها المعاصرة.

المبحث الثالث: المقاصد الدعوية المتعلقة بأتباع الدعوة وتطبيقاتها المعاصرة.

المبحث الرابع: المقاصد الدعوية المتعلقة بالمخالفين للدعوة وتطبيقاتها المعاصرة.

المبحث الخامس: المقاصد الدعوية المتعلقة بمجتمع الدعوة وتطبيقاتها المعاصرة.

الخاتمة: وفيها أبرز نتائج البحث، وتوصيات الباحث.

الفهارس: وفيها فهرسي المصادر والمراجع، والمحتويات.

وختامًا: أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل مقبولا عنده وأن ينفع به كاتبه وقارئه والمستفيد منه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

كتبه

أ. د. عابد الثبيتي

Abed1429@gmail.com

الفصل الأول

المدخل إلى مقاصد الدعوة النبوية

يتضمن هذا البحث عددًا من المفردات والمصطلحات العلمية، ولكلٍّ معناه في اللغة أو الاصطلاح العام أو الخاص، وبيان هذا في المطالب التالية:

المبحث الأول

تعريف المقاصد الشرعية

المقاصد الشرعية مصطلح مركب من كلمتين: المقاصد، والشريعة، وبيانها في المطلبين التاليين:

المطلب الأول: تعريف المقاصد:

المقاصد في اللغة: جمع مَقْصِد، والمَقْصِد: مصدر ميمي مشتق من الفعل (قَصَدَ)، يطلق على معان متعددة منها: الأَمُّ، أي: التوجه، واعتماد وجهة محددة، فيقال: إليه مقصدي. أي: وجهتي[(١)]، وهذا الإطلاق هو المناسب لمقصود البحث.

وفي الاصطلاح العام: كل ما يسعى الإنسان إلى تحقيقه ويبذل الجهد في تحصيله مما له فيه مصلحة. فجني الثمرة مقصد الزارع، ونيل الشهادة مقصد الدارس، وتحصيل المال مقصد التاجر، وهكذا. قال ابن عاشور ﷺ: المقاصد: هي الأعمال والتصرفات المقصودة لذاتها التي تسعى النفوس إلى تحصيلها بمساع شتى، أو تُحمل على السعي إليها امتثالًا. ثم بيَّن: بعده مباشرة بأنَّها تنقسم إلى قسمين: مقاصد للشرع ومقاصد للناس في تصرفاتهم[(٢)].

وبما أنَّ الدعوة إلى الله تعالى فرع عن الشريعة، فلابد من تعريف مقاصد الشريعة قبل تعريف مقاصد الدعوة إلى الله.

---

(١) ينظر: الصحاح للجوهري (٣ / ٨٦)، معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٥/ ٩٥)، المعجم الوسيط لمجموعة مؤلفين (٢/ ٧٣٨).

(٢) ينظر: مقاصد الشريعة الإسلامية (ص٤١٥).

المطلب الثاني: تعريف مقاصد الشريعة وأنواعها:

إنَّ كلمة مقاصد الشريعة مركبة من كلمتين تركيبًا إضافيًّا: المقاصد، والشريعة، وسبق بيان معنى المقاصد في اللغة والاصطلاح العام، وأمَّا الشريعة في اللغة: فهي الموضع الذي ينحدر منه الماء فيرده الناس للشرب[١]. وتطلق في الاصطلاح على ما شرَع الله تعالى لعبادِه من الدين[٢].

ثم إنَّ علم المقاصد الشرعية علم قديم حديث، قديم باعتبار أنَّه لم يكن غائبًا عن المحققين من علماء المسلمين عبر القرون دون أن نجد لهذه اللفظة بمعناها الخاص كثير ذكر في كتبهم وآثارهم، وأمَّا كونه حديثًا فباعتبار إفراده بالتآليف الخاصة الكثيرة في العصر الحاضر، لذا فإنَّا لن نجد تعريفًا دقيقًا للمقاصد الشرعية إلا عند العلماء المعاصرين...

وإنَّ من أوائل من عرَّف علم المقاصد الشرعية الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: فقال: «هي المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها، بحيث لا تختص ملاحظتها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة، فيدخل في هذا أوصاف الشريعة وغايتها العامة والمعاني التي لا يخلو التشريع عن ملاحظتها، ويدخل في هذا -أيضًا- معانيَ من الحِكم ليست ملحوظة في سائر أنـواع الأحكام؛ ولكنَّها ملحوظة في أنواع كثيرة منها»[٣].

وعرفها أيضا الشيخ علَّال الفاسي: بعد ذلك بقوله: «مقاصد الشريعة: الغاية منها

---

(١) ينظر: لسان العرب لابن منظور (٨/ ١٧٥).
(٢) ينظر: الحدود الأنيقة (ص٧٠).
(٣) مقاصد الشريعة الإسلامية (ص٢٥١).

والأسرار التي وضعها الشارع عند كل حكم من أحكامها»[١]. ثم اتضحت ملامح هذا العلم في كونه: الغايات التي جاءت الشريعة لأجل تحقيقها؛ لتضمنها مصالح البشرية.

وإنَّ مقاصد الشريعة على نوعين:

الأول: المقاصد الشرعية العامة، كتحقيق التوحيد وتعبيد الناس لله، وحفظ دين الناس وأنفسهم وأعراضهم وعقولهم وأموالهم...إلخ.

الثاني: المقاصد الشرعية الخاصة، وتعني المقاصد الشرعية لجانب من جوانب الدين أو باب من أبواب العلم، كمقاصد العبادات، والمعاملات، والحدود، والقضاء. وفي هذا القسم تندرج مقاصد الدعوة إلى الله.

(١) مقاصد الشريعة ومكارمها (ص٧).

المبحث الثاني

تعريف مقاصد الدعوة النبوية، والعهد النبوي

سوف أبين في هذا المبحث المراد بمقاصد الدعوة النبوية، والعهد النبوي وأقسامه وأبرز سمات كل قسم.

المطلب الأول: تعريف مقاصد الدعوة النبوية:

مقاصد الدعوة النبوية اسم مركب يطلق على اصطلاح معين، فلا يمكن تعريفه إلا بمعرفة جزأيه وهما: المقاصد، والدعوة، فأمَّا المقاصد فسبق تعريفها، وبقي تعريف الدعوة قبل تعريف العَلَم المركب، فأقول:

الدعوة في اللغة: كلمة تشير إلى معنى: النداء، والطلب، والحث، فيقال: دعا الرجل، أي: ناداه وطلبه، ودعاه إلى الصلاة أي: حثَّه عليها[(١)].

وقبل تعريف الدعوة إلى الله في اصطلاح الدعاة لابد من معرفة جوانبها عند السلف الصالح ﷺ، حيث جعلوا لها جوانب أربعة هي:

الأول: تبليغ الدين ابتداء لغير المسلمين ودعوتهم للدخول فيه لينالوا سعادة الدنيا والآخرة.

الثاني: تعليم المسلمين ما يجهلونه من عقائد الإسلام وشرائعه وأخلاقه وآدابه، وتربيتهم عليه، ويتبع هذا: القيام بمسؤولية الفتوى فيهم، والإجابة على أسئلتهم، وإرشادهم لما فيه الخير والصلاح.

الثالث: الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه والنهي عن المنكر إذا ظهر فعله.

---

(١) ينظر: المعجم الوسيط (١/ ٢٨٦).

الرابع: الجهاد باللسان في الرد على المبطلين وكشف شبه المضلين، وبالسنان لدفع العدوان عن المسلمين وإزاحة من يقف في طريق وصول الدعوة إلى الناس، وذلك لأنَّ المقصود الأعظم من الجهاد أن تكون كلمة الله هي العليا، وهو أيضا مقصود الدعوة إلى الله. فعن أبي موسى الأشعري ﷺ أنَّ النبي ﷺ سُئل عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال ﷺ: «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ** ﷻ»[(١)]. وهذا يؤكد أنَّ الجهاد جانب من جوانب الدعوة إلى الله تعالى.

وأمَّا كيف يكون الجهاد دعوة إلى الله؛ فهذا يتبيَّن بمعرفة أنواع الجهاد، وقد بيَّن ابن القيم: أنواعه فقال: «الجهاد أربع مراتب: جهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد الكفار، وجهاد المنافقين. فجهاد النفس أربع مراتب أيضًا:

إحداها: أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق الذي لا فلاح لها ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به، ومتى فاتها عِلْمُه شقيت في الدارين.

الثانية: أن يجاهدها على العمل به بعد علمه؛ وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها.

الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات، ولا ينفعه علمه ولا ينجيه من عذاب الله.

الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله وأذى الخلق ويتحمل ذلك كلَّه لله.

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، حديث رقم (٢٨١٠)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، حديث رقم (١٩٠٤).

فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين؛ فإنَّ السلف مجمعون على أنَّ العالِـم لا يستحق أن يُسمَّى ربانيًّا حتى يعرف الحقَّ ويعمل به ويعلِّمه؛ فمن علم وعمل وعلَّم فذاك يُدعى عظيمًا في ملكوت السموات.

وجهاد الشيطان فمرتبتان:

إحداهما: جهاده على دفع ما يلقي إلى العبد من الشبهات والشكوك القادحة في الإيمان.

الثانية: جهاده على دفع ما يلقي إليه من الإرادات الفاسدة والشهوات. فالجهاد الأول يكون بعده اليقين، والثاني يكون بعده الصبر. قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:٢٤]، فأخبر أنَّ إمامة الدين إنما تنال بالصبر واليقين، فالصبر يدفع الشهوات والإرادات الفاسدة، واليقين يدفع الشكوك والشبهات.

وأمَّا جهاد الكفار والمنافقين فأربع مراتب: بالقلب واللسان والمال والنفس، وجهاد الكفار أخص باليد، وجهاد المنافقين أخص باللسان .

وأما جهاد أرباب الظلم والبدع والمنكرات فثلاث مراتب: الأولى: باليد إذا قدر، فإن عجز انتقل إلى اللسان، فإن عجز جاهد بقلبه.

فهذه ثلاث عشرة مرتبة من الجهاد، ومن مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق»[(١)].

فإذا تأملنا المراتب التي ذكرها ابن القيم: أدركنا يقينًا أنَّ الجهاد والدعوة مرتبطان لا ينفك أحدهما عن الآخر. ومن هنا يكون الأوفق تعريف الدعوة إلى الله في الاصطلاح

(١) زاد المعاد (٣ / ٩-١٠).

العام بقولنا: هي تبليغ الإسلام للناس، وتعليمهم إيَّاه، وأمرهم به، والإنكار على من يخالفه، وجهاد من يأبى الخضوع لحكمه[١].

وأمَّا في الدراسات الأكاديمية الحديثة فقد صار كل جانب من جوانب الدعوة إلى الله عِلمًا قائمًا بذاته، له أصوله وقواعده وكتبه والمختصون فيه، فصار مصطلح الدعوة إلى الله يطلق على جانب خاص من تلك الجوانب، ألا وهو تبليغ الإسلام والترغيب في التمسك به والانقياد لأوامره واجتناب نواهيه، ولعل أشمل تعريف لها في إطلاقها الخاص هو: «قيام الداعية المؤهل بإيصال دين الإسلام إلى الناس كافة، وفق المنهج القويم، وبما يتناسب مع أصناف المدعوين ويلائم أحوال وظروف المخاطبين في كل زمان ومكان»[٢].

وبعد التعريف لمصطلحي: المقاصد، والدعوة، يمكنني تعريف المركب منهما، فأقول: إنَّ مقاصد الدعوة هي: المصالح المرعية والغايات المقصودة عند الدعوة إلى الله تعالى.

فالمصالح: ضد المفاسد، فكل مصلحة معتبرة شرعًا أو مرسلة[٣] يصح اعتبار تحقيقها مقصدًا للدعوة، والغايات المقصودة: هي الأهداف التي يُسعى لتحقيقها عند الدعوة إلى الله.

---

(١) ينظر: قواعد وضوابط فقه الدعوة (ص٩٦).

(٢) الأسس العلمية لمنهج الدعوة الإسلامية، للمغذوي (١/ ٤٨).

(٣) **المصالح المرسلة هي:** المصالح المطلقة التي لم يقيِّدها الشارع باعتبار ولا بإلغاء. وهذا النوع يشترط العلماء لاعتباره أربعة شروط:

١- أن تكون تلك المصلحة المرسلة ضرورية يُجزم بحصول المنفعة منها.

٢- أن تكون تلك المصلحة عامة كليَّة وليست خاصة.

٣- أن تلائم تلك المصلحة المقاصد الشرعية.

٤- أن تكون قطعية يغلب على الظن وجودها.

ينظر: المصالح المرسلة، لـوجنات (ص٧٢، ١٥٦ وما بعدها).

وعليه فتكون مقاصد الدعوة النبوية هي: المصالح المرعية والغايات المقصودة من دعوة النبي ﷺ للناس.

المطلب الثاني: تعريف العهد النبوي، وأقسامه:

العهد النبوي هو: الزمن الذي عاشه النبي ﷺ داعيًا إلى الله تعالى.

وقد عاش ﷺ ثلاثًا وستين سنة، منها ثلاثًا وعشرين سنة هي عمر الدعوة النبوية، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أُنزل على رسول الله ﷺ وهو ابن أربعين، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة، ثم أُمر بالهجرة فهاجر إلى المدينة فمكث بها عشر سنين، ثم توفي ﷺ[(١)].

وقد اصطُلح على تسمية ذلك بالعهدين: المكي، والمدني[(٢)]، وفيما يلي بيان معنى كل منهما وذكر أبرز سماته.

أولًا: تعريف العهدين: المكي والمدني:

العهد: يأتي في اللغة على معان منها: الزمان، المكان[(٣)]. فيقال: عهد الصحابة، أي: زمانهم، وعهدته بالسوق، أي: مكانه السوق.

والمكي: نسبة إلى مكة، البلد الحرام المعروف، الذي بُعث فيه النبي ﷺ.

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب مناقب ألأنصار، باب مبعث النبي ﷺ، حديث رقم (٣٨٥١)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب كم أقام النبي ﷺ بمكة، حديث رقم (٢٣٥١). وقد وقع اختلاف في عدد السنين التي قضاها النبي ﷺ بمكة مع الاتفاق على عدد السنين بالمدينة، ورجح ابن حجر رواية ابن عباس هذه. ينظر: فتح الباري (٧/ ٢٣٠).

(٢) نزل القرآن الكريم في ثلاث وعشرين سنة هي عمر الدعوة النبوية، وقد اعتنى العلماء بالتفريق بين القرآن المكي والمدني، فجعلوا ما نزل قبل الهجرة مكيًّا، وما نزل بعدها مدنيًّا على أرجح الأقوال، فوجدت أنَّ هذا مناسب أيضًا للتفريق بين العهد المكي والمدني، فاعتبرت السنوات الأولى من البعثة إلى الهجرة عهدًا مكيًّا، ومن دخول النبي ﷺ المدينة إلى وفاته عهدًا مدنيًّا.

(٣) ينظر: تاج العروس للزبيدي (٨/ ٤٥٧).

والعهد المكي هو: الزمان الذي قضاه النبي ﷺ داعيًا إلى الله تعالى بمكة قبل هجرته إلى المدينة النبوية[١].

والمدني: نسبة للمدينة النبوية، مهاجر النبي ﷺ بعد خروجه من مكة المكرمة.

والعهد المدني هو: الزمان الذي قضاه النبي ﷺ داعيًا إلى الله تعالى بعد هجرته إلى المدينة النبوية وإقامته بها.

ثانيًا: سمات العهدين المكي والمدني:

إنَّ لكلٍ من العهدين: المكي والمدني سمات تميزه عن الآخر، وسأذكر سمات كلٍّ منهما فيما يلي:

أبرز سمات العهد المكي:

تميَّز العهد المكي بسمات من أبرزها:

١) أنَّ أكثر المجتمع المكي كان كافرًا بالله تعالى مشركًا معه غيره، حيث كان حول الكعبة وفي جوفها ثلاثمئة وستون صنمًا، تعظمها قريش، وتتبرك بها، وتتخذها وسائط وشفعاء لهم عند الله تعالى، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: دخل النبي ﷺ المسجد -يعني يوم فتح مكة- وحوله ثلاثمئة وستون صنما، فجعل يطعنها بعود كان معه ويقول: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء:٨١][٢].

٢) أنَّ السلطة الحاكمة على مكة والقرار السياسي فيها بيد الكفار، فهم الذين يسنُّون القوانين ويحكمون المجتمع، ويوالون ويعادون، والعرب خاضعة لهم؛ لأنهم أهل الحرم وسدنة الكعبة، فلا سلطة فوق سلطتهم ولا سلطان لأحد عليهم.

---

(١) ينظر: الرحيق المختوم (ص٨٥).

(٢) أخرجه ابن حبان، كتاب الحظر والإباحة، باب الصور والمصورين، حديث رقم (٥٨٦٢)، وصحح إسناده محققه الشيخ: شعيب الأرناؤوط.

٣) أنَّ خصوم الدعوة في العهد المكي كانوا أهل قوة ومنعة ومكانة اجتماعية، ليس في مكة فحسب؛ بل امتد سلطانهم على من جاورهم من العرب، إذ كانوا يتسنمون هرم القبائل العربية مكانةً وسؤددًا، ودانت العرب بأسرها لمكانتهم التي لم ينازعهم فيها أحد، ويدل على هذا ما روته أم هانئ ﵂ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**فَضَّلَ اللهُ قُرَيْشًا بِسَبْعِ خِصَالٍ: فَضَّلَهُمْ بِأَنَّهُمْ عَبَدُوا اللهَ عَشْرَ سِنِينَ، لَا يَعْبُدُهُ إِلَّا قُرَشِيٌّ**(١)، **وَفَضَّلَهُمْ بِأَنَّهُ نَصَرَهُمْ يَوْمَ الْفِيلِ وَهُمْ مُشْرِكُونَ، وَفَضَّلَهُمْ بِأَنَّهُ نَزَلَتْ فِيهِمْ سُورَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ لَمْ يَدْخُلْ فِيهِمْ غَيْرُهُمْ: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾** [قريش:١]، **وَفَضَّلَهُمْ بِأَنَّ فِيهِمُ النُّبُوَّةَ**(٢)، **وَالْخِلَافَةَ**(٣)، **وَالْحِجَابَةَ**(٤)، **وَالسِّقَايَةَ**(٥)»(٦).

---

(١) المراد -والله أعلم- العشر السنين الأولى من بعثته ﷺ، أي: من البعثة إلى خروجه لدعوة أهل الطائف، إذ بذلك يكون قد بدأ عرض نفسه على قبائل العرب في الحج وفي غيره، وهذا القول في الحقيقة إنما خرج مخرج الغالب لأن أكثر المؤمنين به في تلك المدة هم من أهل مكة.

(٢) وذلك بأن اختار الله تعالى النبي الخاتم ﷺ من قريش.

(٣) لقوله ﷺ: (**الخلافة في قريش**) أخرجه أحمد في المسند، حديث رقم (١٧٦٥٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٨٥١).

(٤) **الحجابة:** سدانة البيت وخدمته، وقد أقرها النبي ﷺ بيد بني طلحة من قريش وقال: (**خذوها يابني طلحة خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم**)، أخرجه الطبراني في الكبير، حديث رقم (١١٢٣٤).

(٥) يعني: سقاية الحاج، وهي لبني هاشم في الجاهلية، وأقرَّها النبي ﷺ بيد العباس بن عبدالمطلب في حجة الوداع كما عند البخاري، كتاب الحج، باب هل يبيت أصحاب السقاية أو غيرهم بمكة ليالي منى؟، حديث رقم (١٧٤٥).

(٦) أخرجه الطبراني في الأوسط، حديث رقم (٩١٧٣)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٤٢٠٩).

ويرحم الله محمد ابن جابر الهواري[١] حيث قال في ذكر مكانة أهل مكة وسيادتهم على العرب قاطبة:

من أعرب العُرب إلا أن نسبته ... إلى قريش حماة البيت والحرم
لا عيب فيهم سوى ألا ترى لهم ... ضيفا يجوع ولا جارا بمهتضم
ما عاب منهم عدو غير أنهم ... لم يصرفوا السيف يوما عن عدوهم
من غضَّ من مجدهم فالمجد عنه نأى ... لكنه غضَّ إذ سادوا على الأمم
كم قائل قال: حاز المجد وارثه ... فقلت: هم وارثوه عن جدودهم
قد أورث المجد عبد الله شيبة عن ... عمرو بن عبد مناف عن قصيهم[٢]

٤) أنَّ القوة الاقتصادية ورؤوس الأموال كان أغلبها بيد الكفار، حيث كانت لهم رحلات تجارية: نحو الشام في الصيف، ونحو اليمن في الشتاء، فصارت مكة سوقًا لا غنى لأحد من قبائل العرب عنها، وقد ذكر الله تعالى ما امتن به عليهم في كتابه فقال: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ [قريش:١-٤].

٥) فساد تصورات أكثر الناس في المجتمع عن الله وعن الكون والحياة، وشيوع الظلم والانحراف، وقد كشف جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه بحضرة النجاشي جانبا منه فوصف حالهم قبل البعثة فقال: (**كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ المَيْتَةَ**

(١) هو: أبو عبد الله، شمس الدين: محمد بن أحمد بن علي بن جابر الأندلسي الهواري المالكي، شاعر، عالم بالعربية، كثير النظم في العلوم، توفي سنة ٧٨٠ ه، من كتبه: الحلة السيراء في مدح خير الورى، العين في مدح سيد الكونين. ينظر: الدرر الكامنة (٥/ ٧١،٧٠)، الأعلام (٥/ ٣٢٨).
(٢) ينظر: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (١/ ٢٣٣، ٢٣٤).

وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَه)[(١)].

٦) أنَّ أهل الإيمان فيه كانوا قلَّة مستضعفة مضطهدة في جوف كثرة مشركة كافرة: فقد دعا النبي ﷺ بمكة مرغبًا ومرهبًا، ليلًا ونهارًا سرًّا وجهارًا، حتى أسلم معه من أسلم من المؤمنين، فمال عليهم الكفار تعذيبا وإيذاء، فمنهم من امتنع من العذاب بقومه، ومنهم من سامه الكفار سوء العذاب، إمَّا لضعف قومه، أو لكونه من الموالي، كبلال بن رباح، وخباب بن الأرت، وغيرهم، ومنهم من خرج من مكة فارًّا بدينه، كالمهاجرين إلى الحبشة.

فهذه أبرز سمات العهد المكي زمن البعثة وأوائل الدعوة النبوية، وإن كانت ليست خاصة به، فقد يتكرر هذا الحال أو بعضه، فقد يقع لبعض المؤمنين حال تشبه الحال في العهد المكي بوجه من الوجوه كما سيتبين ذلك لاحقًا.

أبرز سمات العهد المدني:

قد تميز العهد المدني بسمات كثيرة، من أبرزها:

١) أنَّ السلطة الحاكمة والقرار السياسي فيها بموجب عقد البيعة مع الأنصار وعقد المعاهدة مع اليهود يكونان بيد النبي ﷺ[(٢)].

٢) تعدد الملل في المدينة-خاصة في أوائل سني الهجرة- حيث كان بالمدينة وما حولها أربعة أصناف من الناس: المسلمون، وهم النبي ﷺ وأصحابه ﷺ، والإسلام ينتشر، والداخلون فيه يزيدون يوما بعد يوم. والمشركون: وهم الباقون على شركهم

(١) أخرجه أحمد في المسند، حديث رقم (١٧٤٠)، وحسن إسناده الشيخ شعيب الأرناؤوط.

(٢) كان من بنود عقد المصالحة مع اليهود أنَّ القرار السيادي للنبي ﷺ، قال ابن هشام ﷺ: «إنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث او اشتجار يخاف فساده فإن مردَّه إلى الله ﷻ وإلى محمد رسول الله ﷺ». ينظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٤، ٣٥).

من الأوس والخزرج وغيرهم من قبائل العرب. واليهود: وهم ثلاث قبائل كبيرة: بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع. والمنافقون: وهم من تظاهروا بالإسلام بعد أن قويت شوكت المسلمين مع إبطانهم الكفر.

٣) تزايد تمكين الله تعالى لنبيه ﷺ والمؤمنين يومًا بعد يوم في المدينة أولًا، ثم خارجها عند دخول القبائل العربية في الإسلام، فأهل الإيمان في تزايد مستمر وخصومهم في تناقص، حتى لم يُقبض النبي ﷺ إلا وقد دخلت الجزيرة العربية كلها في الإسلام.

٤) الاستقرار الاقتصادي عند المسلمين، وتزايد الموارد المالية بما فتح الله على نبيه ﷺ والمؤمنين من البلدان، وغنائم الجهاد في سبيل الله، بالإضافة إلى ما وهبهم الله من خيرات المدينة ببركة دعوة النبي ﷺ لها بقوله: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْ بِالْمَدِينَةِ ضِعْفَيْ مَا جَعَلْتَ بِمَكَّةَ مِنَ الْبَرَكَةِ**»(١).

٥) شيوع الأمن في أرجاء المدينة، ثم تبعتها في ذلك كل البلدان التي دخل أهلها في الإسلام.

٦) طهارة أكثر النفوس من أدران الشرك والانحراف ومفسدات الأخلاق والطباع.

فهذه أبرز سمات العهد المدني، التي يمكن تلخيصها في أربعة أمور: الهداية، والطهارة، والقوة، والأمن.

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب: اللهم اجعل بالمدينة، حديث رقم (١٨٨٥)، ومسلم، كتاب الحج، باب فضل المدينة، حديث رقم (١٣٦٩).

الفصل الثاني

مقاصد الدعوة النبوية

إنَّه بعد دراسة السيرة النبوية وتحليل المواقف الدعوية ظهر لي أنَّ مقاصد الدعوة النبوية تنقسم بحسب تعلُّقها إلى خمسة أنواع:

١) المقاصد المتعلقة بكيان الدعوة.

٢) المقاصد المتعلقة بمضمون الدعوة.

٣) المقاصد المتعلقة بأتباع الدعوة.

٤) المقاصد المتعلقة بالمخالفين للدعوة.

٥) المقاصد المتعلقة بمجتمع الدعوة.

وقد ذكرت هذه الأنواع وأردفت بكل منها تطبيقاتها الدعوية المعاصرة، وبيان ذلك في المباحث التالية:

المبحث الأول

المقاصد الدعوية المتعلقة بكيان الدعوة وتطبيقاتها المعاصرة

كيان الدعوة هو: بنيانها المعنوي، وقوامها الذي تقوم عليه[١]، والذي يتمثل في منهجها، وعلمائها، وقادتها، ومؤسساتها، ومرافقها...إلخ، وفي هذا المبحث سأبين المقاصد الدعوية المتعلقة به، وتطبيقاتها المعاصرة:

المطلب الأول

المقاصد الدعوية المتعلقة بكيان الدعوة

المقصد الأول: تقوية كيان الدعوة:

بدأت الدعوة أول بدئها بمكة ضعيفة تتوارى عن الأنظار، وما زالت تكبر وتقوى شيئًا فشيئًا حتى أصبحت قوة أنار الله بها قلوبا عميا وفتح بها آذانا صما، فخرج بها الناس من ظلمات الشرك والخرافة إلى أنوار التوحيد والإيمان.

وعندما نتأمل سيرة النبي ﷺ نجد أنَّه ما ترك سبيلًا يمكن من خلاله تقوية الدعوة إلا سلكه واعتنى به واستثمره، ومن أبرز تلك السبل مايلي:

الأول: التوطئة بدعوة الموثوق بهم من الأقارب وغيرهم:

بدأ النبي ﷺ دعوته بمكة سرًّا، ولهذا كان يتفرَّس في القريبين منه علَّه يجد من يكون أقرب لقبول الحق وأسرع في الاستجابة؛ ليكون صادق الودِّ قويَّ الصلة عظيم

(١) ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (ص١٩٧٤).

النصح له ولدعوته، فبدأ بدعوة زوجه خديجة، وصديقه أبي بكر، ومولاه زيد، وابن عمه: علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين.

وفعلا آمن به أُناس من خواصِّه أولًا، ثم من عشيرته الأقربين لما أمر بدعوتهم بقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء:٢١٤-٢١٦]. فلم يزل يدعو الناس على مدى ثلاث سنين ثم يأوي لمن يثبِّته ويعينه ويسدده ويشدُّ من أزره ممن آمن معه من خُلَّص أصحابه، وإنما كان ذلك أول الأمر-والله أعلم- ليتقوى بهم على من بَعُدَ، وأمر بخفض الجناح للمؤمنين منهم؛ لأنَّهم صفوة المدعوين، وعليهم تُعقد الآمال -بعد الله- لحمل الدعوة إلى الناس كافة.

الثاني: استثمار الفرص المتاحة لخدمة الدعوة:

إنَّ الفرص التي تعرض للدعوة لا يمكن حصرها أو استقصاؤها ولا التنبؤ بها قبل وقوعها، فهي تختلف باختلاف أحوال الدعاة وطبائع المجتمعات وعاداتها، وطبيعة الفرص أيضا، فمنها ما يأخذ صفة الدوام والاستمرار، ومنها العارض الذي سرعان ما يزول، وكل داعية إلى الله سيجد فرصا متاحة ينبغي عليه استثمارها لصالح دعوته.

والنبي ﷺ كان شديد الاستثمار لها، سواء كانت تلك الفرص علاقات اجتماعية أو صلات قرابة، أو أشخاص ذوو مكانة وتأثير. ومن ذلك أنَّ الله تعالى قذف في قلب أبي طالب حُبَّ النبي ﷺ، فدفعه ذلك الحُبُّ الفطري إلى الوقوف معه ومؤازرته والدفاع عنه، واستمرَّ في مناصرته ومؤآزرته إلى أن مات، وبعد موته لحق الأذى النبي ﷺ، حتى قال: «**مَا نَالَتْ مِنِّي قُرَيْشٌ شَيْئًا أَكْرَهُهُ، حَتَّى مَاتَ أَبُو طَالِبٍ**»[(١)].

(١) ينظر: الدرر في اختصار المغازي والسير (ص٥٥).

قال ابن كثير رحمه الله: «خالفه في ذلك عمُّه أبو طالب بن عبد المطلب، وكان رسول الله ﷺ أحبَّ خلق الله إليه طبعا، وكان يحنو عليه ويحسن إليه ويدافع عنه ويحامي، ويخالف قومه في ذلك مع أنَّه على دينهم وعلى خلتهم إلا أنَّ الله تعالى قد امتحن قلبه بحبه حبًّا طبعيًّا لا شرعيًّا، وكان استمراره على دين قومه من حكمة الله تعالى ومما صنعه لرسوله من الحماية، إذ لو كان أسلم أبو طالب لما كان له عند مشركي قريش وجاهة ولا كلمة ولا كانوا يهابونه ويحترمونه، ولاجترؤوا عليه، ولمدُّوا أيديهم وألسنتهم بالسوء إليه، وربك يخلق ما يشاء ويختار»[(١)].

كما استثمر النبي ﷺ العلاقة الاجتماعية الفطرية الطبعية مع أبناء عمومته من بني هاشم؛ فدفعهم ذلك إلى تحمُّل الحصار الشديد معه، في الشعب ثلاث سنين، وهم ليسوا كلهم على دينه[(٢)]، فصبروا على شدة المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية التي فرضت عليهم لا لشيء إلا لوقوفهم ومناصرتهم النبي ﷺ.

واستثمر ﷺ مجيء أبناء القبائل العربية إلى مكة ليعرض عليهم الإسلام ويطلب النصرة والمنعة، لعلَّه يجد من يحمله ويؤآزره في تبليغ دينه، فعن محمود بن لبيد رضي الله عنه قال: لما قدم أبو الحيسر -أنس بن رافع- مكة ومعه فتية من بني عبد الأشهل فيهم إياس بن معاذ يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، سمع بهم رسول الله ﷺ، فأتاهم فجلس إليهم، فقال لهم: «**هَلْ لَكُمْ إِلَى خَيْرٍ مِمَّا جِئْتُمْ لَهُ؟**» قالوا: وما ذاك ؟ قال: «**أَنَا رَسُولُ اللهِ، بَعَثَنِي إِلَى الْعِبَادِ أَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يَعْبُدُوا اللهَ لَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأُنْزِلَ عَلَيَّ كِتَابٌ**» ثم ذكر الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فقال إياس بن معاذ، وكان غلامًا حدثًا: أي قوم، هذا والله خير مما جئتم له، قال: فأخذ أبو الحيسر حفنة من البطحاء فضرب بها في

(١) ينظر: البداية والنهاية (٣/ ٤١).

(٢) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٦٤)، وروضة الأنوار (ص٦٣).

وجه إياس. وقام رسول الله ﷺ عنهم، وانصرفوا إلى المدينة، ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك، قال محمود بن لبيد: فأخبرني من حضره من قومي عند موته أنَّهم لم يزالوا يسمعونه يهلل الله ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات، فما كانوا يشكون أن قد مات مسلمًا[١].

ولقي النبي ﷺ رجلًا من همدان فعرض عليه ما عرض على أهل يثرب رغبة في إسلامه والتقوي به، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: كان النبي ﷺ يعرض نفسه على الناس بالموقف فيقول: «**هَلْ مِنْ رَجُلٍ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ، فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي**»، فأتاه رجل من همدان، فقال له النبي ﷺ: «**مِمَّنْ أَنْتَ؟**» فقال الرجل: من همدان. قال: «**فَهَلْ عِنْدَ قَوْمِكَ مِنْ مَنَعَةٍ؟**» قال: نعم. ثم إنَّ الرجل خشي أن يخفره قومه، فأتى رسول الله ﷺ فقال: آتيهم، فأخبرهم، ثم آتيك من عام قابل. قال: «**نَعَم**»، فانطلق، وجاء وفد الأنصار قبل مجيئه[٢].

وكان ﷺ يطوف على وفود العرب في الحج وفي الأسواق يعرض الدعوة عليهم ويطلب منهم نصرته على التبليغ، فاختلفت ردود القبائل: فمنهم من ردَّ ردًّا جميلًا، ومنهم من اشترط لنفسه الرئاسة من بعد النبي ﷺ، ومنهم من ردَّ ردًّا قبيحًا، ولم يزل النبي ﷺ على ذلك لا يتوانى حتى وافى وفد أهل يثرب في السنة الحادية عشرة، فأسلم منهم ستة نفر، فواعدهم السنة القابلة فكانت بيعة العقبة الأولى، فأرسل معهم مصعب بن عمير معلمًا، فوافوه في السنة الثالثة عشرة من البعثة فبايعوه بيعة العقبة الثانية، التي على إثرها تمت هجرته إلى المدينة النبوية[٣].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند، حديث رقم (٢٣٦١٩)، وحسَّن إسناده الشيخ شعيب الأرناؤوط.
(٢) المصدر نفسه، حديث رقم (١٥١٩٢)، وصحح إسناده الشيخ شعيب الأرناؤوط.
(٣) ينظر: روضة الأنوار (ص٧٣-٨٢).

بل كان ﷺ على علم تام بالواقع المحيط بدعوته، فيعرف البلاد وأهلها ورجالاتها المؤثرين فيها، بالإضافة إلى معرفته التامة بواقع القبائل العربية المحيطة به، وكان أيضا مدركًا لواقع الدول القائمة في زمنه، ومدى قربهم من مكة وبعدهم عنها، وتجاوز ذلك إلى معرفة الأحوال السياسية فيها، ومستوى العدل والظلم عندهم، حتى قال لأصحابه لما أرشدهم للهجرة إلى الحبشة: «**إِنَّ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لَا يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ فَالْحَقُوا بِبِلَادِهِ حَتَّى يَجْعَلَ اللهُ لَكُمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ**»[(١)]. وهذا الإدراك للواقع المحيط يُهيئ لاستثماره، ويجعل القرارات المتخذة أكثر صوابًا ورشدًا وأشدَّ جلبًا للمصالح التي تنشدها الدعوة.

كما أنَّه لا يخلو زمان من أهل مروءة ميَّزتهم رجاحة عقولهم، ورفعت ذكرهم محاسن أفعالهم، وقدَّمتهم قدراتهم على غيرهم، وإن كان بعضهم في ميزان الإيمان والدين لا شيء، وقد كان العهد النبوي يزخر بأشخاص من هؤلاء كثير: منهم وجهاء بمكة، ومنهم أهل دراية وخبرة، ومنهم ملوك وحكام في غير مكة، فكان يستفيد منهم فيما يخدم دعوته ويقويها، ومن ذلك: أنَّه ﷺ طلب من المطعم بن عدي جواره ليدخل مكة بعد خروجه منها إلى الطائف[(٢)]، واتخذ عبد الله بن أريقط الليثي دليلا له في الهجرة إلى المدينة مع أنَّه كان على الشرك[(٣)]، وأحضر معه عمَّه العباس بن عبدالمطلب بيعة العقبة الثانية وكان آنذاك على دين قومه[(٤)]، وهكذا كان النبي ﷺ يستفيد من أهل المروءة من الناس

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، باب الإذن بالهجرة، حديث رقم (١٧٧٣٤)، وصححه الألباني في الصحيحة برقم (٣١٩٠).
(٢) ينظر: الدرر في اختصار المغازي والسير (ص٦٢).
(٣) ينظر: المصدر نفسه (٣/ ١٥).
(٤) ينظر: المصدر السابق (٢/ ٢٩٠).

فيما فيه مصلحة الدعوة، وقد ثبت في الحديث أنَّ النبي ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الفَاجِرِ**»[(١)].

ولا يشكل على هذا ما روته عائشة رضي الله عنها فقالت: خرج رسول الله ﷺ قِبَل بدر، فلما كان بحرَّة الوبرة أدركه رجل قد كان يُذكر منه جرأة ونجدة، ففرح أصحاب رسول الله ﷺ حين رأوه، فلما أدركه قال: جئت لأتَّبعك وأصيب معك، قال له رسول الله ﷺ «**تُؤْمِنُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ؟**» قال: لا. قال: «**فَارْجِعْ، فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ**»[(٢)]. فإنَّ امتناع النبي ﷺ عن الاستعانة بالمشركين جاء متأخرًا بعد هجرته إلى المدينة حين أصبح للإسلام دولة وسلطان وقوة ومنعة، أمَّا في حال الاستضعاف بمكة فقد كان الحال على خلاف ذلك. فما ورد في الحديث محمول على حال القوة والعزة والاستغناء، إذ لا حاجة حينئذ للاستعانة بالمشركين، أمَّا حال الضعف أو الاحتياج فإنَّ الاستعانة ليست محرمة كما هو فعل النبي ﷺ بمكة.

ويؤيد هذا أنَّ النبي ﷺ قدَّم في سفره للعمرة سنة الحديبية عينا له من خزاعة، وكان رجلًا مشركًا، فلما بلغ النبيُّ ﷺ ومن معه عسفان[(٣)] جاءه الخزاعي وأخبره باستعداد قريش والأحابيش[(٤)] لصده عن دخول مكة. فظهر من هذا أنَّ الاستعانة بالمشركين في حال الضعف أو الحاجة جائزة، وأمَّا في حال العزة والقوة والاستغناء لا تجوز. وهذا

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب: إن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر، حديث رقم (٣٠٦٢) ومسلم، كتاب الإيمان، باب غلظ قتل الإنسان نفسه، حديث رقم (١١١).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كراهة الاستعانة في الغزو بكافر، حديث رقم (١٨١٧).

(٣) عسفان: بلد بين مكّة والمدينة، تبعد عن مكة تسعة وأربعون ميلًا، فيها آبار للمياه وأرضها خصبة. ينظر: الروض المعطار (ص٤٢١).

(٤) الأحابيش هم حلفاء قريش من بني كنانة، تحالفوا معهم تحت جبل يقال له: حُبْشِي، فسمُّوا به. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (ص١٨٣)، والاشتقاق (ص١٩٣).

ظاهر فعله ﷺ، إذ كان في مكة يستعين بهم لضعفه، وامتنع عن الاستعانة بهم في بدر لاستغنائه عنهم، ثم استعان بهم في الحديبية للحاجة أو المصلحة المعتبرة، قال ابن القيم: في فوائد قصة الحديبية: «ومنها: أنَّ الاستعانة بالمشرك المأمون في الجهاد جائزة عند الحاجة؛ لأنَّ عينه الخزاعي كان كافرًا إذ ذاك، وفيه من المصلحة أنَّه أقرب إلى اختلاطه بالعدو وأخذه أخبارهم»(١).

ولم يزل استثمار الفرص ديدن الدعوة النبوية، ففي المدينة قال ﷺ لأبي بصير لما رده للمشركين بعد الحديبية فَقَتَل رُسُلَهم وعاد إليه: «**وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ، لَوْ كَانَ لَهُ أَحَد**»(٢). قال العظيم أبادي رحمه الله: «فيه إشارة إليه بالفرار لئلا يرده إلى المشركين، ورمز إلى من بلغه ذلك من المسلمين أن يلحقوا به»(٣). وفعلًا انحاز أبو بصير إلى ساحل البحر واجتمع عليه كل فارٍّ بدينه من مكة، فكوَّنوا قوة تُغير على قوافل قريش وتهدد تجارتها مما اضطرهم إلى إبطال أحد شروط صلح الحديبية، فانظم أبو بصير ومن معه للمسلمين في المدينة.

ولقد كانت الاستفادة من كل الكفاءات والطاقات والفرص أمرًا ظاهرًا في سيرته ﷺ، فأبو بكر وعمر أهل مشورته، وعثمان وعلي بن أبي طالب وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ومعاوية بن أبي سفيان كتَّابٌ للوحي، والزبير بن العوام حواريُّه، وأبو عبيدة بن الجراح أمين أمته، وحذيفة بن اليمان أمين سرِّه، وخالد بن الوليد وحمزة وعمرو بن العاص وغيرهم من الأبطال قادة جيوشه، وبلال وابن أم مكتوم للأذان، وأنس بن مالك خادمه وصاحب نعله وطهوره، وحافظ سرِّه وراوية حديثه...إلخ

---

(١) زاد المعاد (٣ / ٢٦٧).
(٢) أخرجه البخاري كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة، حديث رقم (٢٧٣٢).
(٣) عون المعبود (٧/ ٣٢٠).

الثالث: إعداد القوة الكيان:

القوة المقصودة هنا نوعان: معنوية، ومادية، وفيما يلي بيان المراد بهما:

الأولى: القوة المعنوية: وهي كل ما فيه تقوية للقلوب والأرواح، مما يعتبر أساسًا لنجاح القوة المادية؛ إذ من دونها لا تغني القوة المادية عن أهلها شيئا، وقد كان النبي ﷺ يربي الصحابة على القوة المعنوية ويحثهم عليها، فقال ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**»[(١)]. قال محمد فؤاد عبدالباقي: «المراد بالقوة هنا: عزيمة النفس والقريحة في أمور الآخرة؛ فيكون صاحب هذا الوصف أكثر إقدامًا على العدو في الجهاد وأسرع خروجًا إليه وذهابًا في طلبه، وأشد عزيمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على الأذى في كل ذلك، واحتمال المشاق في ذات الله تعالى، وأرغب في الصلاة والصوم والأذكار وسائر العبادات، وأنشط طلبًا لها ومحافظة عليها، ونحو ذلك»[(٢)].

وكل مواقفه ﷺ مع أصحابه كانت تُعِدُّ نفوسهم للإيمان والتضحية وإعلاء كلمة الله تعالى، وهذا لا يحتاج لإيضاح؛ لظهوره وتوافر الشواهد عليه في مواقف وأحداث السيرة النبوية كلها.

وأمَّا القوة المادية فهي: كل ما تتقوى به الدعوة من الرجال والسلاح والأموال، ومن ذلك أنَّه ﷺ كان يُجري السباق بين الخيول لتدريبها وتقويتها لتكون مستعدة للقتال في كل لحظة يستدعي الأمر ذلك: فقد سابق رسول الله ﷺ بين الخيل المضمَّرة[(٣)]،

(١) أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز، حديث رقم (٢٦٦٤).

(٢) التعليق على صحيح مسلم، التعليق على حديث رقم (٢٦٦٤).

(٣) **إضمار الخيل:** إعدادها للسباق، وذلك بالاقتصاد في إطعامها حتى تتخفف من شحومها لتكون أسرع. ينظر: المصباح المنير (٢/ ٣٦٤).

فأرسلها من الحفياء إلى ثنية الوداع -وبينهما ستة أميال أو سبعة- وسابق بين الخيل التي لم تضمر فأرسلها من ثنية الوداع إلى مسجد بني زريق -وكان بينهما ميل أو نحوه- وكان ابن عمر ﷺ ممن سابق فيها[١].

وسبَّق رسول الله ﷺ بين الإبل، فكانت ناقته العضباء لا تُسبق، فجاء أعرابي على قعود له فسبقها، فشقَّ ذلك على المسلمين فقال رسول الله ﷺ: «**حَقٌّ عَلَى اللهِ أَنْ لَا يَرْتَفِعَ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَه**»[٢].

وفي جانب آخر فإنَّه ﷺ كان يحرص على تأمين المصادر المالية لتقوية الدعوة، ومن ذلك أنَّه ربَّما باع السبي الذي يقع في يده من السرايا والغزوات أو بعضه لتأمين السلاح والدواب للقتال، فقد روى البيهقي بسنده إلى الإمام الشافعي: أنَّه قال: سبى رسول الله ﷺ نساء بني قريظة وذراريهم وباعهم من المشركين، فاشترى أبو الشحم اليهودي أهل بيت -عجوزًا وولدها- من النبي ﷺ، وبعث رسول الله ﷺ بما بقي من السبي أثلاثًا: ثلثًا إلى تهامة، وثلثًا إلى نجد، وثلثًا إلى طريق الشام، فبيعوا بالخيل والسلاح والإبل والمال[٣].

ولما أفاء الله على نبيه ﷺ بأموال بني النضير، وهي لرسول الله ﷺ خاصة أخذ منها نفقة سنة له ولأهله، ثم جعل ما بقي منها في السلاح والكراع[٤] عدة في سبيل الله[٥].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب غاية السبق للخيل المضمرة، حديث رقم (٢٨٧٠)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب المسابقة بين الخيل وتضميرها، حديث رقم (١٨٧٠).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ناقة النبي ﷺ رقم (٢٨٧٢).

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب جماع أبواب السير، باب بيع السبي من أهل الشرك، حديث رقم (١٨٣٢٨).

(٤) **الكراع:** اسم لجميع الخيْل. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (ص٧٩٨).

(٥) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب المجن، حديث رقم (٢٩٠٤).

ولذات المقصد عقد النبي ﷺ المعاهدات مع القبائل القاطنة بالمدينة أو المحيطة بها، وأولها كانت مع قبائل اليهود، وكان لهذه المعاهدة هدفان: الأول: الأمن من مكرهم وغدرهم -ولو إلى أجل-، والثاني: التقوِّي بهم على من يحارب المدينة من خارجها، وهذا ظاهر في نصوص المعاهدة، وسيأتي مزيد بيان لذلك.

ثم قَبِل النبي ﷺ معاهدة خزاعة بعد صلح الحديبية بهدف التقوي بهم على قريش وحلفائها، فتم له ذلك، وكانوا سببًا وعونًا له على فتح مكة فيما بعد[١].

المقصد الثاني: تجويد الكيان وترتيبه:

إذا قامت الدعوة وكثر أتباعها وتعددت مهامها صارت الحاجة ملجئة لمزيد من التنظيم؛ حتى لا تتداخل المهام ويقع النزاع والشقاق في الصف المسلم، وهذا ما فعله النبي ﷺ بدعوته، ففي بيعة العقبة طلب من الأنصار أن يُسمُّوا اثني عشر نقيبا منهم، كل نقيب يكون على قومه؛ ليسهل التواصل مع الناس عن طريقهم، ولتدرك كل قبيلة أنَّها مسؤولة عن مضمون البيعة حتى لو تخاذل غيرهم، قال محمد فؤاد عبدالباقي: «النقباء: جمع نقيب، وهو كالعريف على القوم المقدَّم عليهم، الذي يتعرف أخبارهم وينقب عن أحوالهم-أي يفتش- وكان النبي ﷺ قد جعل ليلة العقبة كل واحد من الجماعة الذين بايعوه بها نقيبًا على قومه وجماعته ليأخذوا عليهم الإسلام ويعرِّفوهم شرايطه، وكانوا اثني عشر نقيبا كلهم من الأنصار»[٢].

وكان من شرائع دينه ﷺ أن شرع تنصيب الأمراء وقوَّاد الجيوش والسرايا لأجل سياسة الناس وتدبير أمور دينهم ودنياهم، وأوجب النبي ﷺ على الناس طاعتهم في

(١) ينظر: الرحيق المختوم (ص٣٥١).
(٢) صحيح مسلم، التعليق على حديث رقم (١٧٠٩).

المعروف فقال: «**مَنْ يُطِعِ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعْصِ الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِ**»[١].

وعمل بذلك ﷺ في حياته، حيث كان يعقد الألوية، ويجهز السرايا، ويكلِّف الأمراء، ويحاسب على التقصير -إن وجد- وينصح ويوجه ويعلِّم، ويقسِّم المهام والمسؤوليات في الأعمال المشتركة، مما يدل على دقَّة التنظيم وحسن الترتيب، ومن ذلك أنَّه لما بلغه ﷺ تجمع الأحزاب من قريش والأحابيش وأسد وغطفان وغيرهم من الأعراب لغزو المدينة أُشير عليه بحفر الخندق، فجمع الصحابة وقسَّم حفر الخندق بينهم، فجعل لكل عشرة رجال حفر أربعين ذراعًا[٢]، حتى تم إنجازه في ستة أيام بطول اثني عشر ألف ذراع[٣].

ولما جهَّز ﷺ الجيش لمؤتة أمرَّ عليهم ثلاثة من الصحابة رضي الله عنهم: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبدالله بن رواحة الأنصاري، ثم قال: «**إِنْ قُتِلَ زَيْدٌ فَأَمِيرُكُمْ جَعْفَرٌ، فَإِنْ قُتِلَ فَأَمِيرُكُمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ**»[٤]، فلعلمه ﷺ بشدة الخطر الذي يقدمون عليه وقوة العدو وبعد المكان لم يترك مجالًا للإخلال بالمهمة، فنصَّب القادة ورتَّبهم في الأولية.

وكذلك فعل في فتح مكة حيث رتَّب الجيش وقسَّمه، وجعل على كل فرقة منها قائدًا وواعدهم الصفا، قال أبو هريرة رضي الله عنه: كنا مع رسول الله ﷺ يوم الفتح فجعل خالد بن الوليد على المجنبة اليمنى، وجعل الزبير على المجنبة اليسرى، وجعل أبا عبيدة

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، حديث رقم (١٨٣٥).

(٢) ينظر: مرويات غزوة الخندق (ص١٨٣-١٨٦).

(٣) ينظر: المصدر نفسه (ص٢٠٣). قلت: إنَّ الانتهاء من الحفر في ستة أيام مع طول المسافة -من غرب الحرة الشرقية إلى شرق الحرة الغربية- وهي ما يقرب من ثلاثة آلاف متر، مع عمق لا يستطيع الرجل إذا نزله أن يصعد منه، وعرض لا تستطيع الخيل أن تتجاوزه، يعتبر إنجازًا رائعًا يصعب فعله إلا أنَّه التأييد من الله تعالى والعزيمة الصادقة في نصرة الإسلام وحماية المسلمين.

(٤) أخرجه أحمد في المسند، حديث رقم (١٧٥٠)، وصححه الأرناؤوط.

على البياذقة[١] وبطن الوادي، ثم قال: «**يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، ادْعُ لِي الْأَنْصَار**». قال: فدعوتهم، فجاءوا يهرولون، فقال: «**يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، هَلْ تَرَوْنَ أَوْبَاشَ قُرَيْشٍ؟**» قالوا: نعم. قال: «**انْظُرُوا، إِذَا لَقِيتُمُوهُمْ غَدًا أَنْ تَحْصُدُوهُمْ حَصْدًا**». وأخفى بيده ووضع يمينه على شماله وقال: «**مَوْعِدُكُمُ الصَّفَا**»[٢].

وفي آخر حياته ﷺ هيأ المجتمع لقبول خليفة بعده؛ ليجمع الكلمة ويدفع النزاع والفرقة المحتملة، فكان في حياته يقدِّم أبا بكر وعمر ﷺ في كثير من الأمور العامة، بل هم من خواص أهل مشورته، وزاد هذا الأمر قبيل موته ﷺ حيث أناب أبا بكر ﷺ في الصلاة طيلة أيام مرضه الذي توفي فيه، فصار هذا أمارة على أنَّه يرضاه لدنياهم كما رضيه لدينهم، فتمت له البيعة وانعقد الإجماع على صحتها، قال النزَّال بن سبرة: وافقنا من علي ﷺ ذات يوم طِيبَ نفسٍ فقلنا: يا أمير المؤمنين، أخبرنا عن أبي بكر بن أبي قحافة؟ قال: ذاك امرؤ سماه الله الصديق على لسان جبريل ولسان محمد ﷺ، كان خليفة رسول الله ﷺ على الصلاة، رضيه لديننا فرضيناه لدنيانا[٣].

وهذا الترتيب والتنظيم تقتضيه الطبيعة البشرية، إذ لابد لها من قائد يقود مسيرتها ويؤلف بين الناس ويراعي المصالح ويسعى لتحقيقها، ويحذر من المفاسد ويبذل قصارى الجهد في منعها أو تقليلها، وكما قيل:

البيت لا يُبتنى إلاّ له عَمَدُ ... ولا عِماد إذا لم تُرسَ أوتادُ

فإن تجمَّع أوتادٌ وأعمدةٌ ... وساكنٌ بَلَغوا الأمر الذي كادوا

لا يصلح الناس فوضى لا سَراة لهم ... ولا سَراة إذا جُهَّالُهم سادوا

(١) **البياذقة**: لفظة فارسية تعني: الرَّجَّالة. ينظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (ص٩٧).
(٢) أخرجه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب فتح مكة، حديث رقم (١٧٨٠).
(٣) ينظر: سبل الهدى والرشاد (١١/ ٢٣٧).

تُهدى الأمور بأهل الرأي ما صلحت ... فإن تولّت فبالأشرار تنقاد

إذا تولّى سَراة الناس أمرهمُ ... نما على ذاك أمر القوم فازدادوا[١]

المقصد الثالث: حماية كيان الدعوة:

كل دعوة تحتاج للحماية حتى لا تمتد إليها أيدي البغي والعدوان، والدعوة إلى الله أحوج ما تكون إلى نوعين من الحماية:

أولهما: الحماية الوقائية، بأخذ الحيطة والحذر من الوقوع في كل ما يمكن أن يضر الدعوة أو يستثير خصومها للنيل منها.

والثاني: الدفاع بالقوة وكفُّ يد المعتدي بالسلاح.

فأمَّا الثاني فلم يكن متاحًا للدعوة النبوية بمكة لحرمتها أولًا ثم لعدم الإذن للنبي ﷺ والصحابة بالقتال آنذاك، ويدل عليه قوله ﷺ للعباس بن عبادة بن نضلة[٢] يوم بيعة العقبة حين قال: والذي بعثك بالحق لئن شئت لنميلَنَّ على أهل منى غدا بأسيافنا. فقال له: «**لَمْ أُؤْمَرْ بِذَلِكَ**»[٣]. وقد اتخذ النبي ﷺ لحماية دعوته أساليب متعددة بحسب أحوال الدعوة في عهديها: المكي والمدني، ومن أبرز ذلك:

الأول: الإسرار بالدعوة أول الأمر:

لقد بدأ النبي ﷺ دعوته إلى الإسلام بمكة بسرِّية تامة لأسباب من أبرزها: حاجة المدعوين بمكة إلى الأمن من مباغتتهم بما يفجؤوهم، فربما يثور الناس عليها فيئدونها في مهدها، بالإضافة إلى أنَّ في الإسرار بالدعوة وقتًا كافيًا لتكوين الأتباع وتقوية الكيان،

---

(١) ينظر: السحر الحلال في الحكم والأمثال (ص٤١).

(٢) هو العباس بن عبادة بن نضلة الخزرجي الأنصاري، صحابي، بايع يوم العقبة، وبقي بمكة حتى هاجر النبي ﷺ فهاجر بعده، فكان أنصار مهاجريا، استشهد يوم أحد. ينظر: الإصابة (٣/ ٦٣٠).

(٣) أخرجه أحمد في المسند، حديث رقم (١٥٧٩٨)، وحسَّن إسناده الشيخ شعيب الأرناؤوط.

حتى إذا ما عدا عليها عدوها لم يستطع اقتلاعها، قال عمرو بن عبسة السلمي ﷺ: كنت وأنا في الجاهلية أظن أنَّ الناس على ضلالة وأنَّهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل بمكة يخبر أخبارًا، فقعدت على راحلتي فقدمت عليه، فإذا رسول الله ﷺ مستخفيًا جُرَءَاءُ عليه قومه...الحديث[١]. وفي هذا دليل على مشروعية الاستخفاء والإسرار بالدعوة في ذلك الحين.

وبعد ثلاث سنين نزل قول الله تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ [الحجر:٩٤-٩٦]. فامتثل ذلك النبي ﷺ وصدع بالدعوة جهارًا نهارًا.

ولكن السؤال هنا: هل أنهى النبي ﷺ السرية من دعوته إلى الأبد بعد نزول هذه الآيات؟

والجواب: إنَّ المتتبع لسيرة ﷺ ودعوته يجد أنَّ الإسرار لم يختف تماما من الدعوة، فلقد بقيت السريَّة في بعض الجوانب التي لا تستطيع الدعوة تحمل تبعات إعلانها، كالإسرار باجتماعهم في دار الأرقم بن أبي الأرقم[٢]، وكإذنه ﷺ لبعض الصحابة بإخفاء إسلامهم دفعًا للأذى عنهم[٣]، قال المباركفوري رحمه الله: «كان عامة الصحابة

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب إسلام عمرو بن عبسة، حديث رقم (٨٣٢).

(٢) كانت دار الأرقم مكان التقاء النبي ﷺ سرًّا بالداخلين في الإسلام، وكانت قرب الصفا في مكان تكثر فيه حركة الناس بصورة طبيعية مما يصعب معه ملاحظة اجتماع المسلمين وافتراقهم. ينظر: المستدرك، كتاب معرفة الصحابة، باب ذكر الأرقم بن أبي الأرقم، حديث رقم (٦١٢٩).

(٣) أذن النبي ﷺ لعدد من الصحابة بكتم إسلامهم منهم: أبو رافع، والعباس بن عبد المطلب وزوجته، وعبدالله بن سهيل بن عمرو، ونعيم بن عبدالله النحام العدوي القرشي، وسعيد ابن زيد وزوجه فاطمة بنت الخطاب. ينظر: المستدرك، كتاب الهجرة، حديث رقم (٤٢٧٣)، وكتاب معرفة الصحابة، باب إسلام العباس، حديث رقم (٥٤٠٣)، والسيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٨٧).

يُخْفُون إسلامهم وعبادتهم واجتماعهم، أمَّا رسول الله ﷺ فكان يجهر بالدعوة والعبادة بين ظهراني المشركين، لا يصرفه عن ذلك شيء، ولكن كان يجتمع مع المسلمين سرًّا؛ نظرًا لصالحهم وصالح الإسلام»[١].

ولما لم يجد ما كان يرجوه من ثقيف بالطائف طلب منهم أن يكتموا خبره، قال ابن هشام رحمه الله: «قام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف، وقد قال لهم -فيما ذُكر لي-: «**إِذَا فَعَلْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ فَاكْتُمُوا عَنِّي**» وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه فيَذْئَرهم[٢] ذلك عليه»[٣].

وكذلك أسرَّ ﷺ بالتجهيز لبيعة العقبة[٤]، وبالاستعداد للهجرة، وبالبدء فيها أيضًا[٥]، ونحو ذلك من التفاصيل الدقيقة والحالات الطارئة على الدعوة منذ الجهر بها إلى الهجرة للمدينة.

الثاني: احترام الأعراف القائمة التي لا تخالف الدين:

كانت للعرب أعراف بينهم في السلم والحرب، والخروج من البلدان والدخول إليها، ولم يزل النبي ﷺ محترما لها مادامت من قبيل العادات المباحة، ولهذا لما أمره الله بالجهر بالدعوة والصدع بالحق في مكة سلك عرفا كانت قريش تفعله عندما تريد الإنذار بخطر داهم، فصعد الصفا ونادى: واصباحاه. ثم نادى بطون قريش بطنًا بطنًا حتى

---

(١) الرحيق المختوم (ص١١٥).
(٢) أي: يجترؤون عليه. ينظر: تاج العروس (١١/ ٣٥٩).
(٣) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٤١٩).
(٤) ينظر لهذا ما أخرجه أحمد في المسند، حديث رقم (١٥٧٩٨)، وحسن إسناده محققه الشيخ شعيب الأرناؤوط.
(٥) ينظر لهذا ما أخرجه البخاري، كتاب اللباس، باب التقنع، حديث رقم (٥٨٠٧).

اجتمعوا، ولكنه لم يفعل الفعل المعتاد منهم في مثل هذا الموقف من شقِّ الجيب ولطم الوجه وما يصحب ذلك من التسخط. «وهنا نلحظ أنَّ الرسول ﷺ لم يتخلَّ عن هذه الطريقة بكاملها، فلم يصعد على الصفا وينادي بطريقة جديدة ويترك طريقتهم، ثم لما أراد الاستفادة لم يكن مقلدا تقليدا كاملا، فلم يتعرَّ، ولم يحثو على نفسه التراب، وبالتالي فقد استفاد مما لدى الغير استفادة منضبطة بما لا يتعارض مع دينه»[(١)].

ومنها: أنَّ كل داخل إلى بلد يتجه لأكابر هذا البلد وأهل السلطان فيه، وهذا عرف معتبر في زمنهم وحتى في زماننا هذا. قال ابن هشام ﷺ: «لما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف عَمَد إلى نفر من ثقيف هم يؤمئذ ساده ثقيف وأشرافهم، وهم إخوة ثلاثة: عبد ياليل بن عمرو بن عمير، ومسعود بن عمرو بن عمير، وحبيب بن عمرو بن عمير بن عوف ابن عقدة بن غيرة بن عوف بن ثقيف، وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح، فجلس إليهم رسول الله ﷺ فدعاهم إلى الله، وكلَّمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه. فقال له أحدهم: هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك. وقال الآخر: أما وجد الله أحدًا يرسله غيرك. وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدًا، لئن كنت رسولًا من الله كما تقول لأنت أعظم خطرًا من أن أردَّ عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك»[(٢)].

ومنها عُرف الجوار، وهو: إعطاء الشخص ذمة وعهدًا تجيره بها وتؤمِّنه[(٣)]. فلما خرج النبي ﷺ إلى الطائف ولم يجد قبولًا عاد إلى مكة، وما كان له أن يدخلها ويمارس دعوته بها كما كان قبل خروجه، لذا طلب من الأخنس بن شريق الجوار، فجبن عن ذلك

(١) فقه السيرة للزيد (ص١٥٦).
(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٦٧)، وينظر: فقه السيرة للزيد (ص٢٣٥).
(٣) ينظر: تاج العروس (١٠/ ٤٨٤).

واعتذر، ثم طلبه من سهيل بن عمرو فأبى عليه، فأرسل إلى المطعم بن عدي فأجاره فدخل مكة في حمايته وجواره[١].

ومن ذلك احترامه ﷺ للأحلاف التي كانت بين الناس -مع أنها نشأت في الجاهلية- شريطة ألا تخالف الشريعة التي أرسل بها، فقد ثبت عنه ﷺ أنَّه قال: «**لَا حِلْفَ فِي الْإِسْلَامِ، وَأَيُّمَا حِلْفٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً**»[٢]. قال النووي -مبينًا أنَّ الحلف المنفي في الحديث حلف التوارث وكل حلف يخالف الشرع أما ماوافقه فلم يُنه عنه-: «ما يتعلق بالإرث فيستحب فيه المخالفة عند جماهير العلماء، وأمَّا المؤاخاة في الإسلام والمحالفة على طاعة الله تعالى والتناصر في الدين والتعاون على البر والتقوى وإقامة الحق فهذا باق لم ينسخ، وهذا معنى قوله ﷺ في هذه الاحاديث: «**وَأَيُّمَا حِلْفٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً**»، وأمَّا قوله ﷺ: «**لَا حِلْفَ فِي الْإِسْلَامِ**» فالمراد به حلف التوارث، والحلف على ما منع الشرع منه والله أعلم»[٣].

الثالث: تجنب الصدام مع الخصوم قدر الإمكان:

إنَّ مصلحة الدعوة إلى الله تكمن في بقائها بأمان أطول زمن ممكن؛ ليصلب عودها وتزكي أتباعها وترتِّب صفوفها استعدادا للمراحل الأخرى من عمر الدعوة، وعند تأمل السيرة النبوية نجد أن تجنب الصدام مع القوى المعارضة أفرادًا وكيانات كان مقصدًا من مقاصد الدعوة النبوية، ومما يدل على ذلك أنَّ الله تعالى نهى نبيه ﷺ والمؤمنين

---

(١) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٢٥)، وروضة الأنوار (ص٦٥)، والسيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص٢٢٩).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب مؤآخاة النبي ﷺ بين أصحابه، حديث رقم (٢٥٣٠).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/ ٨٢).

معه بمكة عن سبِّ آلهة الكفار حتى لا يستفزهم فتأخذهم الحمية لباطلهم فقال: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٦ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۖ وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ١٠٧ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٠٦-١٠٨]. قال الطاهر بن عاشور: في ارتباط الآية الأخيرة بالأولى: «عطف على قوله: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ يزيد معنى الإعراض المأمور به بيانًا، ويحقق ما قلناه أن ليس المقصود من الإعراض ترك الدعوة؛ بل المقصود الإغضاء عن سبابهم وبذيء أقوالهم مع الدوام على متابعة الدعوة بالقرآن، فإنَّ النهي عن سبِّ أصنامهم يؤذن بالاسترسال على دعوتهم وإبطال معتقداتهم مع تجنب المسلمين سبَّ ما يدعونه من دون الله»[(١)].

ولقد آذى المشركون النبي ﷺ وأصحابه في مكة أشد الإيذاء، فمنهم من عُذِّب في بطحاء مكة، ومنهم من قُتل، ومنهم من اضطره الإيذاء إلى الخروج من بلده وأهله وماله، ولشدة وطأة الكفار على المؤمنين ومن ناصرهم دخل بنو هاشم وبنو المطلب شعب أبي طالب وفُرض عليهم الحصار ثلاث سنين. قال سعيد بن جبير رحمه الله: قلت لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم؟ قال: نعم، والله إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالسًا من شدة الضر الذي نزل به حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة، حتى يقولوا له: آللات والعزى إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم. حتى إنَّ الجُعل[(٢)] ليمر بهم فيقولون له: أهذا الجُعل إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم. افتداء منهم مما يبلغون من

(١) التحرير والتنوير (٧/ ٤٢٧).

(٢) **الجعل:** حيوان كالخنفساء يكثر في المواضع الندية. ينظر: المعجم الوسيط (١/ ١٢٦).

جهده[١]. وكان ﷺ يرى ذلك ويسمعه ومع ذلك لم يُنصِّب نفسه مدافعا عنهم ومواجها لخصومهم وأعدائهم، ليس لأن أمرهم لا يهمه؛ بل لأنَّه لو فعل ذلك لجعل الدعوة التي يحملها في مواجهة مع الباطل المتقوي عليهم فتخسر الدعوة حينئذ.

وإنَّ إعراض النبي ﷺ عن المشركين والجاهلين كان ظاهرًا في سيرته عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فلم يلتفت إلى اتهامهم له بالسحر والكهانة، ولم ينشغل بالرد عليهم وإثبات أنَّه ليس بشاعر ولا كذاب، بل لم يجعل للدفاع عن ذاته مجالا في دعوته، ومما يدل على ذلك أنَّه حضر معهم عند عمه أبي طالب وهو يحتضر، فصار يدعوه للإيمان بالله، وهم يوصونه بالتمسك بدين عبدالمطلب والموت عليه، فلم يوجِّه لهم الخطاب أبدًا، بل مازال يكرر دعوته لعمه حتى قال: إنَّه على دين عبدالمطلب[٢].

وكان يطوف على العرب بسوق ذي المجاز ويدعوهم إلى الإسلام ويطلب نصرته ليبلغ رسالة ربه، وخَلْفَه عمه أبو لهب يكذِّبه ويدعو الناس إلى عدم الاستماع له، فلم يُنقل أنَّه وجَّه الخطاب إليه أو عاتبه أو لامه أو توعده، إنَّما كان ماضيًا في دعوته متجنبًا أيَّ موقف يوقع الدعوة في خصومة وصدام لم يحن وقتها بعد، فعن ربيعة بن عبَّاد الديلي، قال: رأيت رسول الله ﷺ وهو يمر في فجاج ذي المجاز، إلا أنَّهم يتبعونه. وقالوا: هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، قال: ورجل أحول وَضِيءُ الوجه ذو غديرتين يتبعه ويقول: إنَّه صابئ كاذب. فقلت: من هذا ؟ قالوا: هذا عمُّه أبو لهب[٣].

---

(١) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٦٢، ١٦٣).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب: إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله، حديث رقم (١٣٦٠).

(٣) أخرجه أحمد في المسند، حديث رقم (١٦٠٢٦)، وحسَّن إسناده الشيخ شعيب الأرناؤوط.

وكان ﷺ ينهى الناس في مكة عن قتال المخالفين، ويأمرهم بكفِّ اليد والصبر على الأذى، مع كثرة الإلحاح عليه بالإذن لهم في القتال، ولم يؤذن لهم بذلك إلا بعد الهجرة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ عبد الرحمن بن عوف وأصحابًا له أتوا النبي ﷺ وهو بمكة فقالوا: يا رسول الله، إنَّا كنَّا في عزٍّ ونحن مشركون، فلمَّا آمنا صرنا أذلة؟! فقال: «**إِنِّي أُمِرْتُ بِالْعَفْوِ، فَلَا تُقَاتِلُوا**»(١).

وبعد الهجرة كان ﷺ يُقدِّم السلم على الحرب، والسماحة على المؤاخذة والمحاسبة، لا عجزًا عن الانتصار؛ بل ليتألَّف القلوب حتى تقبل الدعوة فينقذهم الله بها من النار، لذا كان ﷺ يصبر على ما يبدر من آحاد المدعوين من غلظة أو سوء أدب أو نيل من أصحابه ودعوته، فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك. فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثم ضحك ثم أمر له بعطاء(٢). قال ابن حجر رحمه الله: «في الحديث بيان حلمه ﷺ وصبره على الأذى في النفس والمال والتجاوز على جفاء من يريد تألفه على الإسلام، وليتأسى به الولاة بعده في خلقه الجميل من الصفح والإغضاء والدفع بالتي هي أحسن»(٣).

ولما قال المنافقون ما قالوا في عائشة رضي الله عنها ونزلت براءتها من الله تعالى أقام ﷺ حدَّ القذف على المؤمنين منهم ولم يعاقب المنافقين دفعًا لشرهم، قال ابن القيم رحمه الله: «لما جاء

(١) أخرجه النسائي، كتاب الجهاد، باب وجوب الجهاد، حديث رقم (٣٠٨٦)، وصحح إسناده الألباني.
(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب اللباس، باب البرود والحبرة والشملة، حديث رقم (٥٨٠٩)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء من يسأل بفحش وغلظة، حديث رقم (١٠٥٧).
(٣) فتح الباري (١٠ / ٥٠٦).

الوحي ببراءتها أمر رسول الله ﷺ بمن صرح بالإفك، فحُدُّوا ثمانين، ثمانين، ولم يحد الخبيث عبد الله بن أبي مع أنَّه رأس أهل الإفك، فقيل: لأنَّ الحدود تخفيف عن أهلها وكفارة والخبيث ليس أهلا لذلك وقد وعده الله بالعذاب العظيم في الآخرة فيكفيه ذلك عن الحد، وقيل: بل كان يستوشي الحديث ويجمعه ويحكيه ويخرجه في قوالب من لا ينسب إليه، وقيل: الحد لا يثبت إلا بالإقرار أو ببينة وهو لم يقر بالقذف ولا شهد به عليه أحد؛ فإنَّه إنما كان يذكره بين أصحابه ولم يشهدوا عليه ولم يكن يذكره بين المؤمنين. وقيل: حدُّ القذف حق الآدمي لا يستوفى إلا بمطالبته، وإن قيل: إنَّه حق لله فلا بد من مطالبة المقذوف، وعائشة لم تطالب به ابن أبي. وقيل: بل ترك حدَّه لمصلحة هي أعظم من إقامته كما ترك قتله مع ظهور نفاقه وتكلمه بما يوجب قتله مرارًا، وهي تأليف قومه وعدم تنفيرهم عن الإسلام، فإنَّه كان مطاعًا فيهم رئيسًا عليهم فلم تؤمن إثارة الفتنة في حدِّه، ولعله ترك لهذه الوجوه كلها»[(١)].

ولا يعني هذا عدم الرد على المخالف دائمًا، بل قد تستدعي بعض الأحوال الرد وبيان الحق، إلا أنِّي وجدت بعد تتبع أحداث السيرة النبوية أنَّ الإساءة إن كانت موجهة لذات النبي ﷺ فإنه لا ينشغل بالرد عليهم، حتى وإن كانوا يزاحمونه في دعوة الناس -كما في موقفهم عند أبي طالب- كقولهم: إنَّه ساحر أو كاهن أو كذاب أو شاعر كما في موقف أبي لهب معه في ذي المجاز، ومثلهما ما فعل أبو جهل حين اعترض رسول الله ﷺ عند الصفا فآذاه وشتمه ونال منه ما يكره من العيب لدينه والتضعيف له[(٢)]. أمَّا إن كانت الإساءة لذات الدعوة ومعارضة الحق فإنَّه في مثل هذه الحال يرد عليهم ويبين الحق. قال

(١) زاد المعاد (٣ / ٢٢٩).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب معرفة الصحابة، باب: إسلام حمزة، حديث رقم (٤٨٧٨)، وصححه، ووافقه الذهبي.

الإمام الطبري ﷺ: «أما قوله: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، فإنَّه أمرٌ من الله تعالى نبيّه ﷺ أن يعرض عمَّن جهل، وذلك وإن كان أمرًا من الله نبيَّه فإنَّه تأديب منه عزَّ ذكره لخلقه باحتمال من ظلمهم أو اعتدى عليهم لا بالإعراض عمَّن جهل الواجبَ عليه من حق الله، ولا بالصفح عمَّن كفر بالله وجهل وحدانيته، وهو للمسلمين حَرْبٌ»[1].

الرابع: عدم تحمل الدعوة تبعة التصرفات الفردية لأتباعها:

إنَّ أتباع الدعوة لن يكونوا جميعا على مستوى واحد من ضبط النفس -خاصة حال الاضطهاد والإيذاء- كما أنَّهم لن يكونوا على درجة واحدة في تحمل الأذى الواقع عليهم بسبب استجابتهم للدعوة، لذا فقد يصدر من أحدهم تصرف أو مواجهة لخصوم الدعوة، وقد يتطور إلى الدفاع باليد أو السلاح ونحوه، فلا ينبغي حينئذ أن تتحمل الدعوة آثار تلك التصرفات الفردية، وإليك بعض الشواهد لذلك:

ذكر أهل السير أنَّ عبد الله بن عمر بن الخطاب ﷺ قال: لما أسلم أبي: عمر قال: أي قريش أنقل للحديث؟ فقيل له: جميل بن معمر الجمحي. قال: فغدا عليه. قال: عبد الله بن عمر: فغدوت أتبع أثره وأنظر ما يفعل وأنا غلام أعقل كل ما رأيت، حتى جاءه فقال له: أعلمت يا جميل أنِّي قد أسلمت ودخلت في دين محمد؟ قال: فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه، واتَّبعه عمر واتَّبعت أبي، حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، وهم في أنديتهم حول الكعبة، ألا إنَّ عمر بن الخطاب قد صبأ. وعمر من خلفه يقول: كذب، ولكني قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله.

فثاروا إليه فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رءوسهم، فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلاث مئة

(١) تفسير الطبري (١٣/ ٣٣٢).

رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا. قال: فبينما هم على ذلك إذ أقبل شيخ من قريش عليه حُلَّة حبرة وقميص موشى حتى وقف عليهم، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: صبا عمر. فقال: فمه، رجل اختار لنفسه أمرًا فماذا تريدون؟ أترون بني عدي بن كعب يسلمون لكم صاحبهم هكذا! خلوا عن الرجل. قال: فوالله لكأنَّما كانوا ثوبا كشط عنه. قال: فقلت لأبي بعد أن هاجر إلى المدينة: يا أبت من الرجل الذي زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت وهم يقاتلونك؟ فقال: ذاك العاص بن وائل السهمي[(١)].

ولما أسلم أبو ذر الغفاري ﷺ في قصته المشهور قال: أقمت مع رسول الله ﷺ فعلمني الإسلام وقرأت من القرآن شيئا فقلت: يا رسول الله، إنِّي أريد أن أظهر ديني؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إنِّي أخاف عليك أن تُقتل**». قلت: لابد منه يا رسول الله وإن قتلت. قال: فسكت عني رسول الله ﷺ وقريش حلق يتحدثون في المسجد فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله. فقاموا إليَّ فضربوني حتى تركوني كأني نُصبٌ أحمر، وكانوا يرون أنَّهم قد قتلوني، فقمت فجئت إلى رسول الله ﷺ فقال لي: «**ألم أنهك؟**» فقلت: يا رسول الله كانت حاجة في نفسي فقضيتها[(٢)].

ونخلص من هذين الموقفين بجملة من الفوائد:

١) أنَّ وجود بعض التصرفات الفردية التي تواجه أعداء الدعوة بالقوة ينبغي ألا تُعدَّ خروجًا على الدعوة، وأنَّ في مثل هذه المبادرات القليلة زعزعة لقوى الباطل، فهي لا تضر الدعوة مادامت تعبر عن ذوات أصحابها، فعمر وأبو ذر ﷺ أعلنا إسلامهما ولم يكتماه، وهو تصرف خاص في موقف خاص بهما.

---

(١) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٩٢-١٩٤).

(٢) ينظر: دلائل النبوة للأصبهاني (١/ ١٤٨)، وأصلها عند البخاري مختصرة، كتاب مناقب الأنصار، باب إسلام أبي ذر ﷺ، حديث رقم (٣٨٦١).

٢) أنَّ الدعوة لم تتبنَّى تلك المواقف الفردية حتى لا تُحتسب ضدها فيقع الضرر حينئذ عليها وعلى أتباعها؛ بدليل سكوته ﷺ عن أبي ذر رضي الله عنه لـمَّا أصرَّ على إعلان إسلامه.

٣) أنَّ الدعوة أيضًا لم تعلن براءتها من الرجلين ولم يُسمع منها إدانة لتصرفهما، وفي هذا إغلاق لبابٍ يستغلُّه أعداء الدعوة للقضاء على أتباعها واحدًا تلو الآخر.

الخامس: اتخاذ الحراس ليلًا، وحمل السلاح تحسبًا لأي طارئ:

لقد كان النبي ﷺ في أوائل أيام الهجرة يتوجس الإيذاء ويخشى المكائد من خصوم الدعوة فاتخذ حراسًا يحرسونه ليلًا، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي يُحرس حتى نزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة:٦٧]، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة فقال لحراسه: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ انْصَرِفُوا فَقَدْ عَصَمَنِي اللهُ**»[(١)]. فكان اتخاذ الحراس أمرا طارئا له سببه، فلما طمأنه الله تعالى صرفهم عنه.

وكان المجتمع المسلم بالمدينة دائم الاستعداد لأي طارئ يستدعي الدفاع عنها، فلما غدرت بنو قريظة ونقضت العهد وكسر الله الأحزاب ووضع الناس سلاحهم جاء جبريل النبيَّ ﷺ فقال: قد وضعت السلاح؟! والله ما وضعناه، فاخرج إليهم. قال: فإلى أين؟ قال: هاهنا. وأشار إلى بني قريظة، فخرج النبي ﷺ إليهم، وكان ما كان من خبرهم[(٢)].

وفي عمرة القضاء دخل النبي ﷺ والصحابة مكة متقلِّدي السيوف حذرًا من غدر قريش، بل إنَّه ﷺ أتى بكامل السلاح معهم قريبًا من مكة ودخلها بالسيوف فقط، قال

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب التفسير، باب تفسير سورة المائدة، حديث رقم (٣٠٤٦)، وحسنه الألباني.
(٢) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب: مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة، حديث رقم (٤١١٧).

المباركفوري رحمه الله: استخلف ﷺ على المدينة، وساق ستين بدنة، وأحرم للعمرة من ذي الحُلَيْفَة، ولبَّى، ولبَّى المسلمون معه، وخرج مستعدًّا بالسلاح والمقاتلة خشية أن يقع من قريش غدر، فلما بلغ يَأجُج وضع الأداة كلَّها: الحَجَف والمِجَانّ والنَّبْل والرِّماح، وخلَّف عليها أوس بن خَوْلِي الأنصاري في مائتي رجل، ودخل بسلاح الراكب السيوف في القُرُب[(١)].

السادس: بعث السرايا وبث العيون للاستطلاع مسابقةً للأحداث:

كان النبي ﷺ يرسل العيون يتحسسون الأخبار ويراقبون الأمن حول المدينة، وينقلون أخبار القوافل ويرصدون حركة الناس، ومن ذلك أنَّه أرسل رجلًا من المسلمين عينا ينظر له ما صنعت عير أبي سفيان قبيل غزوة بدر حتى جاءه بالخبر؛ فاستنفر من كان موجودا من الصحابة للخروج، وكان ذلك سببًا لمعركة بدر الكبرى[(٢)]. وبعث عشرة رهط سريةً عينًا وأمرَّ عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري[(٣)]، فانطلقوا حتى إذا كانوا بين عسفان ومكة ذُكروا لحي من هذيل يقال لهم: بنو لحيان، فنفروا لهم قريبًا من مائتي رجل فقتلوهم إلا ثلاثة رجال منهم خبيب بن عدي رضي الله عنه، وهي المعروفة بحادثة الرجيع[(٤)].

ولما أحرم بالعمرة عام الحديبية قدَّم عينا له من خزاعة يستطلع أخبار قريش، وسار حتى أقبل على مكة فأخبره عينه بأنَّ قريشًا جمعوا وينوون صدَّه وقتاله، مما كان سببًا في

(١) ينظر: الرحيق المختوم (ص٣٩١-٣٩٣).
(٢) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، حديث رقم (١٩٠١).
(٣) هو عاصم بن ثابت بن قيس الأنصاري، صحابي، شهد بدرًا وأحدًا، وأمَّره النبي ﷺ على سرية فغدرت بهم قبيلة لحيان فقُتل، وأراد المشركون أخذ جثته فحمته الدبر إذ عاهد الله ألا يمس مشركا ولا يمسه مشرك. ينظر: الطبقات لابن سعد (٣/ ٤٦٢، ٤٦٣).
(٤) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب: غزوة الرجيع، حديث رقم (٤٠٨٦).

صلح الحديبية كما هو معلوم[١]. وبعث سرية بقيادة زيد بن حارثة إلى وادي القرى لمراقبة حركة العدو إن كان هناك ما يريب[٢]، وهكذا كان ديدنه ﷺ وهو في المدينة.

السابع: استعمال التورية والمعاريض عند الحاجة:

عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ قلَّما يريد غزوة يغزوها إلا ورَّى بغيرها حتى كانت غزوة تبوك، فغزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديد واستقبل سفرًا بعيدًا ومفازًا، واستقبل غزو عدوٍّ كثير، فجلَّى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم، وأخبرهم بوجهه الذي يريد[٣]. قال ابن حجر: في بيان كيفية التورية: «إنَّ المراد أنَّه كان يريد أمرا فلا يظهره؛ كأن يريد أن يغزو جهة الشرق فيسأل عن أمر في جهة الغرب ويتجهز للسفر، فيظن من يراه ويسمعه أنَّه يريد جهة الغرب، وأمَّا أن يصرح بإرادته الغرب وإنما مراده الشرق فلا»[٤].

الثامن: حماية سمعة الكيان الدعوي:

أكثر الناس يتأثرون بما يرونه أو يسمعونه مما يقدح في الدعوة أو الدعاة دون تثبت أو استفصال عن الأسباب، لذا فقد كان ظاهرًا من سيرة النبي ﷺ محافظته على سمعة الدعوة وكشف كل ما من شأنه تشويه وتنفير الناس منها، ومن ذلك مسارعته لكشف حال المرأة التي كانت معه لرجلين من الأنصار؛ حتى لا يقع في قلبيهما سوءًا. قالت أم المؤمنين صفية بنت حيي: إنَّها جاءت رسول الله ﷺ تزوره وهو معتكف في المسجد في العشر الأواخر من رمضان، ثم قامت تنقلب، فقام معها رسول الله ﷺ، حتى إذا بلغ قريبًا من باب المسجد

(١) المصدر نفسه، كتاب المغازي، باب: غزوة الحديبية، حديث رقم (٤١٧٨).
(٢) ينظر: الرحيق المختوم (ص٣٣٥).
(٣) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من أراد غزوة فورَّى بغيرها، حديث رقم (٢٩٤٨).
(٤) فتح الباري (٩/ ٢٥٠).

عند باب أم سلمة زوج النبي ﷺ مرَّ بهما رجلان من الأنصار فسلما على رسول الله ﷺ ثم نفذا، فقال لهما رسول الله ﷺ: «**على رسلكما**»، إنها صفية بنت حيي. قالا: سبحان الله يا رسول الله. وكَبُر عليهما ذلك. فقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا سُوءًا، أَوْ قَالَ: شَيْئًا**»(١).

وكفَّ ﷺ عن قتل المنافقين على عِظم ما كانوا يأتون من الأقوال والأفعال الشنيعة حفاظًا على سمعة الدعوة: فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كنا في غزاة فكسع(٢) رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار. وقال المهاجري: يا للمهاجرين. فسمَّعها الله رسوله ﷺ فقال: ما هذا؟ فقالوا: كسع رجل من المهاجرين رجلًا من الأنصار فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين. فقال النبي ﷺ: «**دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ**». قال جابر: وكانت الأنصار حين قدم النبي ﷺ أكثر، ثم كثر المهاجرون بعد، فقال عبد الله بن أبي: أَوَ قد فعلوا؟! والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق. قال النبي ﷺ: «**دعه، لا يتحدث الناس أنَّ محمدًا يقتل أصحابه**»(٣). فها هو ﷺ قد ترك قتل رأس المنافقين من أجل ألا يُستغل ذلك في التنفير من الدعوة بزعم أنَّه يقتل من معه من أصحابه.

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، حديث رقم (٣٢٨١)، ومسلم، كتاب السلام، باب بيان أنه يستحب لمن رؤي خاليًا بامرأة أن يقول هذه فلانة، حديث رقم (٢١٧٥).

(٢) **الكسع**: ضرب الدبر باليد. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (ص٨٠١).

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾، حديث رقم (٤٩٠٧)، ومسلم، كتاب البر والصلة، باب نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا، حديث رقم (٢٥٨٤).

التاسع: إبراز قوة الدعوة:

قد تستحسن بعض الدعوات أن تبقى مختفية في المجتمعات المعادية، وتظن أنَّ هذا سيمنع عنها أذى الأعداء، وفي الحقيقة أنَّ أعداء الدعوة إذا لم يروا من الدعوة وضوحا في المقال وعزة في التعامل وثباتا على المبادئ والجهر بها صراحة دون تورية أو تخفي تسلطوا عليها بكل سبيل.

وإذا تأملنا السيرة النبوية نجد أنَّ النبي ﷺ كان في منتهى الحذر والحيطة أن يصيب الدعوة ما يوقف انتشارها أو يحدُّ توسعها، إلا أنَّه -في المقابل- يظهر عزة الإيمان ويرسل للقوم عبارات التهديد عند ازدياد جرأتهم على الدعوة، فقد أخرج أحمد أنَّ جمعًا من قريش كانوا يتحدثون في المسجد ويذكرون النبي ﷺ فقالوا: سفَّه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسب آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم، فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مرَّ بهم طائفا بالبيت، فلما مرَّ بهم غمزوه ببعض ما يقول، فمضى، فلما مرَّ بهم الثانية غمزوه بمثلها فمضى، ثم مرَّ بهم الثالثة فغمزوه بمثلها، فقال: «**تَسْمَعُونَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَمَا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِالذَّبْحِ**»، فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع، حتى إنَّ أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرفؤه[(١)] بأحسن ما يجد من القول، حتى إنَّه ليقول: انصرف يا أبا القاسم، انصرف راشدًا، فوالله ما كنت جهولًا[(٢)].

وقد أخرج البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنَّه قال (مَازِلْنَا أَعِزَّةً مُنْذُ أَسْلَمَ عُمَر)[(٣)]. وذلك أنَّه رضي الله عنه لما أسلم خرج بالصحابة في صفين، حمزة في أحدهما، وهو في

(١) أي: يُسَكِّنُه ويرفُقُ به ويدعو له. النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (ص٣٦٦).
(٢) المسند، حديث رقم (٧٠٣٦)، وحسن إسناده الشيخ شعيب الأرناؤوط.
(٣) أخرجه البخاري، كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب عمر، حديث رقم (٣٦٨٤).

الآخر، له كديد ككديد الطحين حتى دخلوا المسجد، قال عمر: فنظرتْ إليَّ قريش وإلى حمزة فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها، فسماني رسول الله ﷺ الفاروق يومئذ[١]. وعن صهيب بن سنان الرومي رضي الله عنه قال: لما أسلم عمر ظهر الإسلام، ودُعي إليه علانية، وجلسنا حول البيت حلقًا، وطفنا بالبيت، وانتصفنا ممن غلظ علينا، ورددنا عليه بعض ما يأتي به[٢].

وحتى بعد ظهور الدعوة وتمكنها قد تحتاج أحيانًا لإظهار قوتها أمام أعدائها ليهابوها فلا يتجرؤوا على معاندتها واعتراض طريقها، ولكن الأسلوب قد يتغير بحسب الحال، وقد كان النبي ﷺ يفعل ذلك أحيانًا، فقد أرسل بعد الهجرة زيد بن حارثة رضي الله عنه في سرية إلى ماء بنجد اسمه: القَرْدَة، فعُرفت بسرية ذي قرد، وكان الهدف منها اعتراض قافلة لقريش عليها أبو سفيان ومعه أموال كثيرة، فغنم زيد المال وفرَّ الرجال[٣].

ولما اعتمر النبي ﷺ والصحابة بعد الحديبية بسنة قالت قريش تنقصًا له ولمن معه: إنَّه يقدم عليكم وقد وهنتهم حمَّى يثرب؛ فأمر النبي ﷺ أصحابه أن يرملوا الأشواط الثلاثة وأن يمشوا ما بين الركنين، ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم[٤].

وبعث ﷺ سرية ذات السلاسل تخويفًا لبعض قبائل العرب حين انحازوا إلى الروم ضد المسلمين في مؤتة، ثم أخذوا في التشاور لغزو المدينة، فعقد لواء لعمرو بن العاص رضي الله عنه لتخويفهم وإيقاع الفرقة بينهم وبين الرومان حتى لا تحتشد مثل تلك الجموع ضده مرة أخرى، فتمَّ له ذلك[٥].

---

(١) ينظر: الإصابة (٤/ ٥٩٠).
(٢) ينظر: الرحيق المختوم (ص١٢٥، ١٢٦).
(٣) ينظر: دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ١٧٠).
(٤) متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب الحج، باب كيف كان بدء الرمَل، حديث رقم (١٦٠٢). ومسلم، كتاب الحج، باب استحباب الرمل في الطواف، حديث رقم (١٢٦٦).
(٥) ينظر: الرحيم المختوم (ص٣٩٩).

ولما دنا جيش المسلمين من مكة لقي العباسُ بن عبدالمطلب ﷺ أبا سفيان ابن حرب فأجاره وحمله إلى النبي ﷺ فأمَّنه، فلما ذهب لينصرف قال رسول الله ﷺ: «**يَا عَبَّاسُ، احْبِسْهُ بِمَضِيقِ الْوَادِي عِنْدَ خَطْمِ الْجَبَلِ، حَتَّى تَمُرَّ بِهِ جُنُودُ اللهِ فَيَرَاهَا**»، وما ذلك إلا ليرى كثرة الجيش فيخاف؛ فيُدخِلُ الخوف إلى قلوب أهل مكة- قال العباس: فخرجت به حتى حبسته حيث أمرني رسول الله ﷺ أن أحبسه. قال: ومرت به القبائل على راياتها، كلما مرت قبيلة قال: من هؤلاء؟ فأقول: سُليم. فيقول: مالي ولسُليم؟ قال: ثم تمر القبيلة فيقول: من هؤلاء؟ فأقول: مُزينة. فيقول: مالي ولمزينة؟ حتى نفذت القبائل لا تمر قبيلة إلا قال: من هؤلاء؟ فأقول: بنو فلان. فيقول: مالي ولبني فلان؟ حتى مرَّ رسول الله ﷺ في الخضراء- كتيبة فيها المهاجرون والأنصار- لا يُرى منهم إلا الحدق من الحديد. قال: سبحان الله من هؤلاء يا عباس ؟ قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار. قال: ما لأحد بهؤلاء قِبلٌ ولا طاقة، والله يا أبا الفضل لقد أصبح مُلك ابن أخيك الغداة عظيما. قلت: يا أبا سفيان، إنَّها النبوة. قال: فنعم إذن. قلت: النجاء إلى قومك.

قال: فخرج حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. فقامت إليه امرأته هند بنت عتبة فأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الدسم الأحمس قُبِّح من طليعة قوم. قال: ويحكم لا تغرنَّكم هذه من أنفسكم فإنَّه قد جاء ما لا قبل لكم به، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن. قالوا: ويلك وما تغني دارك ؟ قال: ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن. فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد[١].

(١) أخرجه الطبراني في الكبير، حديث رقم (٧٢٦٤)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم (٣٣٤٠).

المطلب الثاني

التطبيقات المعاصرة للمقاصد الدعوية المتعلقة بكيان الدعوة

- وجوب استثمار الدعوة لجميع الفرص المتاحة سواء كانت تلك الفرص: أنظمة أو أشخاصًا أو مرافق أو غيرها؛ لتسخيرها في نجاح الدعوة إلى الله.

- البدء بالدعوة الفردية للأشخاص القريبين من الداعية، ثم بالدعوة الجماعية المحصورة، ثم الدعوة العامة، كل ذلك بحسب قوة الدعوة ومدى نضجها وتوفر الإمكانات لها.

- الإسرار بالدعوة بحسب الحاجة، فكلما كان الخطر أعظم والخوف أشد كانت الحاجة للإسرار بالدعوة أكثر، ولذا قد تحتاج الدعوة للإسرار في حال دون حال، أو في زمن دون زمن، أو بلد دون بلد، فيكون ذلك هو المتعين؛ لأنَّ المقصود هو الحفاظ على بيضة الدعوة من خصومها.

- مراعاة الأعراف القائمة سـواء كانت اجتماعية أو سياسية أو غيرها والاستفادة منها في تحقيق المصالح للدعوة ودفع المفاسد عنها، شريطة أن لا تتضمن مخالفة للشريعة، ولا تقود إلى تكبيل الدعوة وإعاقتها عن تحقيق هدفها في دعوة الناس وإصلاحهم.

- لزوم إبقاء الدعوة في مصالحة مع من حولها -حسب الإمكان- حتى تتمكن من الانتشار، ويُقبل الناس عليها دون حرج أو خوف، وحتى لا يستغل أعداؤها بعض المواقف للتنفير منها ومن أتباعها، أو الهجوم عليها ووأدها والقضاء عليها.

- إعداد القوة وتنمية الموارد المادية والبشرية وإنشاء الأوقاف حتى تستغني الدعوة وتتنزه عن الحاجة إلى الناس، مما يضمن عدم توقفها أو التسلط عليها وإذلالها.

- حماية سمعة الدعوة والدعاة وذلك باعتماد مبدأ الوضوح والشفافية، ومشاركة من يستطيع من العلماء وطلبه العلم وقادة الفكر في وسائل الإعلام والتحدث إلى الناس وكشف الشبه والإجابة عن الاستفهامات؛ لما في ذلك من قطع الطريق على خصوم الدعوة والمناوئين لها.

- إظهار قوة الدعوة وكثرة أتباعها أحيانًا؛ وخاصة في البلدان التي فيها طوائف ومذاهب فكرية مخالفة، وذلك من خلال الوسائل والطرق المتاحة؛ حتى لا يستهين الخصوم بالمسلمين فينقصوهم حقوقهم المشروعة؛ مع مراعاة قاعدة جلب المصالح ودرء المفاسد الناتجة عن ذلك.

- إنشاء المراكز والجمعيات التي تُعنى بالدعوة إلى الله تعالى، مع وضع الهياكل التنظيمية، وكتابة اللوائح الإدارية والمالية الكفيلة بتنظيم الجهود وترتيب الأعمال بعيدًا عن الفوضى والارتجال.

المبحث الثاني
المقاصد الدعوية المتعلقة بمضمون الدعوة وتطبيقاتها المعاصرة

يتضمن هذا المبحث المقاصد الدعوية المتعلقة بمضمون الدعوة وجوانب الاقتداء بها في العصر الحاضر، وبيانها في المطلبين التاليين:

المطلب الأول
المقاصد الدعوية المتعلقة بمضمون الدعوة

يحتوي هذا المطلب على ثلاثة مقاصد تتعلق بمضمون الدعوة النبوية، وهي على مايلي:

المقصد الأول: وضوح الدعوة:

الوضوح: مصدر من الفعل الثلاثي وَضَحَ، وهو بمعنى انكشاف الشيء وانجلاؤه حتى يصبح واضحًا[(١)].

ومضمون الدعوة إلى الله تعالى يجب أن يكون واضحًا بحيث يعلم المدعوون إلى ما يُدعون إليه، وكيف يدخلون فيها، ومصير قبولهم للدعوة أو إعراضهم عنها، وقد كانت دعوته ﷺ واضحة المعالم بينة لكل من وُجِّهت إليه، ويتجلَّى ذلك الوضوح في ثلاثة جوانب: الهدف، والمضمون، والعاقبة.

(١) ينظر: المصباح المنير (٢/ ٦٦٢).

فأمَّا هدف الدعــوة النبوية فقد كان واضحا أتم الوضــوح، إذ الهدف منها تعبيد النــاس لله وحده لا شريك له، وقد بين الله تعالى هذا بقوله: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦]، وهو ما كان يُعلنه النبي ﷺ ويجهر به ويدعو إليه، ففي المسند عــن ربيعة بن عبَّاد الدِّيلِي رضي الله عنه قال: رأيت رســول الله ﷺ يطــوف على الناس بمنى في منازلهــم قبل أن يهاجر إلى المدينة يقول: «**يَا أَيُّهَا النَّـاسُ، إِنَّ اللهَ ﷻ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**»[(١)].

وكذلك مضمون دعوته ﷺ كان واضحًا أيضًا، حيث دعاهم إلى خلع ما هم عليه من الشرك واتخاذ الوسطاء والشفعاء بينهم وبين الله تعالى، وترك تعظيم عادات الآباء والأجداد المخالفة لشريعة الله تعالى، وكان يأمرهم بالقيام لله تعالى بالتوحيد الخالص، ويتبين ذلك من جوابه لعمرو بن عبسة السلمي رضي الله عنه[(٢)] لما سأله: ما أنت؟ قال: «**أَنَا نَبِيٌّ**». فقال: وما نبي؟ قال: «**أَرْسَلَنِي اللهُ**». فقال: وبأي شيء أرسلك؟ قال: «**أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَكَسْرِ الْأَوْثَانِ، وَأَنْ يُوَحَّدَ اللهُ لَا يُشْرَكُ بِهِ شَيْءٌ**»[(٣)]. فأخبر بكل وضوح عن رسالته ومضمونها دون أدنى تورية.

وفي جواب جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي حينما سأله عن دينهم الجديد تأكيد لهذا الوضوح أيضًا حيث قال: (**كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى**

---

(١) أخرجه أحمد في المسند، حديث رقم (١٦٠٢٤)، وصحح إسناده الشيخ شعيب الأرناؤوط.

(٢) هو: عمرو بن عبسة بن خالد السلمي، صحابي جليل، أسلم قديمًا والنبي ﷺ بمكة، وقدم عليه بعد الهجرة فعرفه، توفي أواخر خلافة عثمان رضي الله عنه. ينظر: الإصابة (٤/ ٦٥٨).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب إسلام عمرو بن عبسة، حديث رقم (٨٣٢).

اللهِ لِنُوَحِّدَهُ، وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ المَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ المُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ)[(١)].

بل حتى أعداءه ﷺ وخصوم دعوته يعلمون مايريد منهم وإلى أي شيءٍ يدعوهم، فهذا أبو سفيان يجيب هرقل لـمَّا سأله عن مطلب رسول الله ﷺ من قومه، يقول: «**اعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّدْقِ وَالعَفَافِ وَالصِّلَةِ**»[(٢)]. فأبو سفيان وهو مشرك مخالف للنبي ﷺ -آنذاك- يعلم ما يدعوهم إليه من توحيد الله ونبذ الأوثان والتزام الفضائل وترك الرذائل.

وأمَّا وضوح العاقبة فقد كان ﷺ يُبين للناس أنَّ جزاء إيمانهم به واتباعهم له دخول الجنة ونوال الأجر والثواب في الآخرة، وإن لم يؤمنوا فإنهم يستحقون الخزي في الدنيا والعذاب في نار جهنم في الآخرة، ففي الصحيحين عن ابن عباس ﷺ قال: (لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤] خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا فهتف: «**يَا صَبَاحَاه**». فقالوا: من هذا؟! فاجتمعوا إليه، فقال: «**أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا الجَبَلِ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟**» قالوا: ما جربنا عليك كذبًا. قال: «**فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**»[(٣)].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بد الوحي، حديث رقم (٧)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل، حديث رقم (١٧٧٣).

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب تفسير سورة المسد، حديث رقم (٤٩٧١)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، حديث رقم (٢٠٨).

وفي بيعة العقبة قال أبو أمامة ﷺ للنبي ﷺ: سل لربك ما شئت، وسل لنفسك ولأصحابك ما شئت، ثم أخبرنا ما لنا من الثواب على الله إذا فعلنا ذاك؟ قال: «**أَسْأَلُكُمْ لِرَبِّي ﷻ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَسْأَلُكُمْ لِنَفْسِي وَلِأَصْحَابِي أَنْ تُؤْوُونَا وَتَنْصُرُونَا وَتَمْنَعُونَا مِمَّا مَنَعْتُمْ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ**»، قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: «**لَكُمُ الْجَنَّةُ**». قالوا: فلك ذلك[(١)].

وكيف لا يُبين ذلك وقد قال الله له: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الحج:٤٩-٥١]. بل بيَّن ﷺ في كثير من المواقف الدعوية أنَّ عاقبة المؤمنين الجنة والنعيم المقيم، وعاقبة المكذبين النار والعذاب الأليم، وهذا واضح أتمَّ وضوح منذ بدء الدعوة؛ ليكون الناس على علم به ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ [الأنفال:٤٢].

فهذه الشواهد وغيرها تدلُّ دلالة ظاهرة على أنَّ الدعوة النبوية كانت واضحة عند الموافقين له والمخالفين على حدٍّ سواء.

المقصد الثاني: تصحيح الاعتقاد وتحقيق التوحيد:

ذكرت سابقًا أنَّ الهدف من دعوة الناس دعوتهم إلى عبادة الله تعالى ونبذ الشرك والبراءة مما كان يعبد الآباء والأجداد من دون الله، ولم تزل الدعوة النبوية تؤكد على تصحيح الاعتقاد في كل مرحلة من مراحلها، كما هو سبيل جميع المرسلين عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥]. وقد ذكر المباركفوري: أنَّ خمسة وعشرين رجلًا من أشراف

(١) أخرجه أحمد في المسند، حديث رقم (١٤٤٥٦)، وصحح إسناده الشيخ شعيب الأرناؤوط.

قريش قالوا لأبي طالب قبيل موته: يا أبا طالب، إنَّك منَّا حيث قد علمت، وقد حضرك ما ترى، وتخوَّفنا عليك، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك، فادعه فخذ له منَّا وخذ لنا منه؛ ليكفَّ عنَّا ونكفَّ عنه، وليدعنا وديننا وندعه ودينه، فبعث أبو طالب إليه، فجاءه فقال: يا ابن أخي، هؤلاء أشراف قومك، قد اجتمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك. ثم أخبره بالذي قالوا له وعرضوا عليه من عدم تعرض كل فريق للآخر. فقال لهم رسول الله ﷺ: «**أرأيتم إن أعطيتكم كلمة تكلَّمتم بها ملكتم بها العرب ودانت لكم بها العجم**»، وفي لفظ أنَّه قال مخاطبًا أبا طالب: «**إنِّي أريدهم على كلمة واحدة يقولونها، تدين لهم بها العرب، وتؤدي إليهم بها العجم الجزية**»، وفي لفظ آخر قال: «**أي عمّ، أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم؟**» قال: وإلامَ تدعوهم؟ قال: «**أدعوهم إلى أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب، ويملكون بها العجم**»، ولفظ رواية ابن إسحاق: «**كلمة واحدة تعطونها تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم**»، فلمَّا قال هذه المقالة توقَّفوا وتحيَّروا ولم يعرفوا كيف يرفضون هذه الكلمة الواحدة النافعة إلى هذه الغاية والحد. ثم قال أبو جهل: ما هي؟ وأبيك لنعطيكها وعشر أمثالها، قال: «**تقولون: لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه**». فصفقوا بأيديهم، ثم قالوا: أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟ إنَّ أمرك لعجب![1].

وفي كلمة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه بين يدي النجاشي -التي سبق ذكرها- بدأ جعفر رضي الله عنه بعرض المخالفات التي كان عليها قومه ثم عرض التوحيد الذي جاء به النبي ﷺ، فهذه دعوة صريحة إلى عبادة الله وحده والكفر بكل معبود سواه، فكانت النتيجة أن آمن النجاشي وأَمِنَ المسلمون في جواره.

(١) ينظر: الرحيق المختوم (ص١٣٦، ١٣٧).

ولمَّا حاصر النبي ﷺ خيبر دعا علي بن أبي طالب ﷺ وأعطاه الراية، فقال علي: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: «**انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ، فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ**»(١).

وكذلك فعل حين جهَّز جيش مؤتة، حيث دفع اللواء إلى زيد بن حارثة ﷺ، ثم أوصى القادة بأن يأتوا مقتل الحارث بن عمير ﷺ(٢) وأن يدعوا مَن هناك إلى الإسلام، فإن أجابوا وإلا فليستعينوا عليهم بالله ﷻ ويقاتلوهم(٣).

ولما اعترضه ﷺ أعرابي وأخذ بخطام ناقته وقال: أخبرني بما يقربني من الجنة وما يباعدني من النار؟ كفَّ عنه، ثم نظر في أصحابه ثم قال: لقد وُفِّق، أو: لقد هدي. ثم قال: كيف قلت؟ فأعاد الرجل قوله. فقال ﷺ: «**تَعْبُدُ اللهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ**»(٤).

فهذه المواقف تؤكد ما ذكرت من أنَّ تصحيح الاعتقاد وتنقية التوحيد كان مقصدا من مقاصد الدعوة النبوية في جميع مراحلها.

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل من أسلم على يديه رجل، حديث رقم (٣٠٠٩)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي ﷺ، حديث رقم (٢٤٠٦).

(٢) هو: الحارث بن عمير الأزدي ﷺ، صحابي، بعثه رسول الله ﷺ إلى ملك بصرى بكتابه، فلمَّا نزل مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فأوثقه رباطا وضرب عنقه صبرًا، فلمَّا بلغ رسول الله ﷺ الخبر بعث الجيش إلى مؤتة. ينظر: الإصابة (١/ ٥٨٩).

(٣) ينظر: سبل الهدى والرشاد (٦/ ١٤٤).

(٤) متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب فضل صلة الرحم، حديث رقم (٥٩٨٣)، وأخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب: بيان الإيمان الذي يدخل به الجنة، حديث رقم (١٣).

المقصد الثالث: صيانة الدين عن التبديل والتحريف:

لم يكتــف النبي ﷺ بالدعوة إلى التوحيد وتصحيح الاعتقاد بادئ الأمر فقط؛ حتى إذا آمن به الناس وصدَّقوه وكفروا بما كانوا يعبدون من الأصنام والأوثان أهمله وانصرف إلى مــا دونه من الأحكام والتشريعــات الربانية المنظمة لحياة النــاس؛ بل مازال يتعاهد الاعتقاد في كل حين حفاظًا على الدين، إذ لا قيمة لدين فســدت منه العقيدة، ومن أبرز الشواهد على ذلك تحذيره الدائم من الغلو عامَّة، والغلو في القبور والأموات خاصة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ**»(١). وعن عائشــة رضي الله عنها أنَّ النبي ﷺ قال في مرضه الذي مات فيه وهو يحذر من الغلو في القبور: «**لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسْجِدًا**»، قالت: ولولا ذلك لأبرزوا قبره غير أنَّه خشي أن يُتخذ مسجدًا(٢).

ونهي ﷺ عن المبالغة في مدحه إغلاقا لباب الغلو فيه بما ليس بمشروع، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه على المنبر يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: «**لَا تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ، وَرَسُولُه**»(٣)، وعن عبدالله بن الشخير رضي الله عنه قال: انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ فقلنا: أنت سيدنا. فقال: «**السَّيِّدُ اللهُ** ﷻ». قلنا: وأفضلنا فضلًا وأعظمنا طَولًا. فقال: «**قُولُوا**

---

(١) أخرجه ابن ماجه، كتاب المناسك، باب قدر حصى الرمي، حديث رقم (٣٠٢٩)، وصححه الألباني.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما جاء في قبر النبي ﷺ، حديث رقم (١٣٩٠)، ومسلم، كتاب الحج، باب النهى عن بناء المساجد على القبور، حديث رقم (٥٢٩).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾، حديث رقم (٣٤٤٥).

بِقَوْلِكُمْ أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ(١) **الشَّيْطَانُ**»(٢). فنهاهم عن الاسترسال في مدحه حتى لا يقودهم ذلك إلى تجاوز الحدِّ المشروع.

وبعد فتح مكة طلب مُسْلِمة الفتح من النبي ﷺ أن يجعل لهم شجرة يتبركون بها كعادة المشركين، فأنكر عليهم طلبهم ذلك وشبَّهه بطلب بني إسرائيل الشرك بعد الإيمان، فعن أبي واقد الليثي رضي الله عنه أنهم خرجوا مع رسول الله ﷺ إلى حنين، قال: وكان للكفار سدرة يعكفون عندها ويعلقون بها أسلحتهم يقال لها: ذات أَنْوَاط، قال: فمررنا بسدرة خضراء عظيمة، فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط. فقال رسول الله ﷺ: «**قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى:** ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٨]، **إِنَّهَا السُّنَنُ، لَتَرْكَبُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ سُنَّةً سُنَّةً**»(٣).

وكثيرًا ما كان يُحذِّر ﷺ من الرياء ويقول: «**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ**» قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «**الرِّيَاءُ**»(٤). ونهى عن التعبد لله في الأماكن التي كانت أو مازالت يعبد فيها غير الله، فعن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه قال: نذر رجل على عهد رسول الله ﷺ نذرًا وسأل عنه النبي ﷺ فقال: إني نذرت أن أنحر إبلا ببوانة(٥). فقال النبي ﷺ لمن حوله من الصحابة: «**هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟**»، قالوا: لا. قال: «**هَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟**»، قالوا: لا. قال

---

(١) أي: لا يتخذنكم الشيطان جَرِيًّا، والجَرِيُّ: الأجير أو الوكيل، فكأنكم تنطقون عَن الشَّيْطَان. ينظر: غريب الحديث لابن قتيبة (١/ ٣٣١)، وغريب الحديث للخطابي (٣/ ٢٦٤).

(٢) أخرجه داود، كتاب الأدب، باب في كراهية التمادح، حديث رقم (٤٨٠٦)، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه أحمد في المسند، حديث رقم (٢١٨٩٧)، وقال محققه الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٤) أخرجه أحمد في المسند برقم (٢٣٦٣٠)، وهو حديث حسن.

(٥) **بوانة:** هضبة من وراء مدينة ينبع. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ١٦٤).

رسول الله ﷺ: «**أَوْفِ بِنَذْرِكَ، فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ**»(١). فعلى الرغم من وجوب الوفاء بالنذر في الإسلام إلا أنَّه ﷺ استفصل عن مكان النَّحر، هل فيه ما ينقض التوحيد أو يُنقصه مخافة أن يخالط قلب الناذر شيء مما كان عليه أهل الجاهلية، أو يُظن أنَّه إنما قصد ما كان يقصده المشركون، وحتى لا يؤدي فعله ذلك لإحياء مآثر الجاهلية وأعيادها، فلمَّا أمن من كل ذلك أمره بالوفاء.

وكان ﷺ ينهى عن الشرك ولو كان بحرف واحد، لذا أمر باستعمال ثم الدالة على الترتيب بدل واو العطف التي تفيد التسوية(٢)، وذلك فيما كان من اختصاص الله سبحانه، فعن حذيفة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا تَقُولُوا مَا شَاءَ اللهُ، وَشَاءَ فُلَانٌ، وَلَكِنْ قُولُوا مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ**»(٣).

وكان كثيرًا ما يُحذِّر من الانحراف عمَّا جاء به من الدين، وينهى عن الإحداث والابتداع في غالب خُطبه، فعن جابر بن عبدالله ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرَّت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنَّه منذر جيش يقول: **صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُم**، ويقول: **بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْن** -ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى- **ويقول: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا،**

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الأيمان والنذور، باب: ما يؤمر به من الوفاء بالنذر، حديث رقم (٣٣١٣)، وصححه الألباني.

(٢) لا يجوز التشريك مع الله غيره بالواو إذا كان الفعل مما اختص الله تعالى به كالمشيئة والإرادة والنصرة، ويجوز التشريك معه بالواو فيما كان من الأمور الشرعية، كالطاعة والعلم، فيقال: طاعة الله ورسوله، الله أعلم ورسوله. ينظر: القول المفيد على كتاب التوحيد (٢/ ٥٤٢)، شرح رياض الصالحين (١/ ٤٨٣).

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب: لا يقال: خبثت نفسي، حديث رقم (٤٩٨٠)، وصححه الألباني.

وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ)[١]. وقال أيضًا: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَد»، وفي لفظ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[٢]. وقد عدَّ العلماء هذا الحديث أحد قواعد الدين الحامية له من التغيير والتبديل والزيادة والنقصان، قال ابن رجب ﵀: هذا الحديث أصلٌ عظيم من أُصول الإسلام، وهو كالميزان للأعمال في ظاهرها، فكلُّ عمل لا يكون عليه أمر الله ورسوله فهو مردودٌ على عامله، وكلُّ مَنْ أحدثَ في الدِّين ما لم يأذن به الله ورسوله فليس مِنَ الدين في شيء[٣].

وقال أيضًا: فهذا الحديث يدلُّ بمنطوقه على أنَّ كلَّ عملٍ ليس عليه أمر الشارع فهو مردود، ويدلُّ بمفهومه على أنَّ كلَّ عمل عليه أمره فهو غير مردود، والمراد بأمره هاهنا: دينُه وشرعُه.

فالمعنى إذًا: أنَّ مَنْ كان عملُه خارجًا عن الشرع ليس متقيدًا بالشرع فهو مردود.

وقوله: «لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا» إشارةٌ إلى أنَّ أعمال العاملين كلهم ينبغي أنْ تكون تحتَ أحكام الشريعة، وتكون أحكام الشريعة حاكمةً عليها بأمرها ونهيها، فمن كان عملُه جاريًا تحت أحكام الشرع موافقًا لها فهو مقبولٌ، ومن كان خارجًا عن ذلك فهو مردودٌ[٤].

وقال النووي ﵀: «وهذا الحديث مما ينبغي حفظه واستعماله في إبطال المنكرات وإشاعة الاستدلال به»[٥].

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجمعة، باب: تخفيف الصلاة والخطبة، برقم (٨٦٧).
(٢) أخرجه مسلم، كتاب الأقضية، باب: نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، برقم (١٧١٨).
(٣) ينظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١٧٦).
(٤) ينظر: المصدر نفسه (١/ ١٧٧).
(٥) شرح النووي على صحيح مسلم (١٢/ ١٦).

وكان هذا ديدنه ﷺ طوال البعثة، حتى ختم رسالته بالإعلان العام في خطبته بعرفة في حجة الوداع بإبطال كل عقائد الجاهلية وعباداتها وعاداتها وأخلاقها وأعرافها إلا ما أقرَّه الشرع منها فقال: «**أَلَا وَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، مَوْضُوعٌ تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْن**»(١).

فهذه الشواهد وأمثالها تبين أنَّ حماية الدِّين كلِّه وصيانته عن ما يقدح فيه ويكدر صفوه من الأقوال والأفعال مقصد من مقاصد دعوته ﷺ، ومن أهم ما ينبغي على الدعاة إلى الله العناية به.

(١) أخرجه ابن ماجه، كتاب المناسك، باب حجة رسول الله ﷺ، حديث رقم (٣٠٧٤)، وصححه الألباني.

المطلب الثاني

التطبيقات المعاصرة
للمقاصد الدعوية المتعلقة بالمنهج

- ينبغي وضوح غاية الدعوة المعاصرة وأهدافها، والتي تتلخص في تعبيد الناس لربهم، ودعوتهم للخضوع لسلطانه وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وهذا يقتضي أن يُدعى الناس على اختلاف أعمارهم وتنوع مستوياتهم: الدينية والعلمية والفكرية والاجتماعية ليكونوا عبادا لله صالحين، ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨].

- وجوب العناية بالتوحيد تأسيسًا وتأكيدًا، وذلك بالدعوة إلى الاعتقاد الصحيح ابتداء، ثم متابعة صيانته أثناء سير الدعوة حتى لا تنحرف المجتمعات المسلمة، إذ لا فائدة من الدعوة إذا لم تُسهم في تصحيح اعتقاد المدعوين وإصلاح ما ينبني عليه صلاح دينهم ودنياهم وآخرتهم، ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٦-٦٩].

- كشف الشبهات المثارة حول الإسلام عامة والتوحيد والعقيدة الصحيحة خاصة من خلال الوسائل المتاحة؛ واستثمار الوسائل الأكثر انتشارًا بين الناس كالبرامج

الفضائية والأفلام القصيرة ووسائل التواصل الاجتماعي، مع اختيار الأسلوب الدعوي المناسب الذي يؤلف القلوب ويحبب الإيمان إلى الناس.

- إعداد المقررات الدراسية التي تبين التوحيد وتوضح مسائله، وتربط جميع العلوم الدينية والدنيوية به، لتنشأ الأجيال مؤمنة موحدة لله ﷻ.

- تأهيل الدعاة إلى الله تأهيلًا علميًّا وإيمانيًّا ومهاريًّا؛ ليكونوا على أكمل حال للقيام بواجبهم الدعوي على الوجه المطلوب.

- بيان ما يُدعى إليه الناس وإيضاحه غاية الوضوح، وكشف كل ما يُلبِّس الفهم أو يُشكل على المدعوين، والإجابة على استفساراتهم في ذلك.

المبحث الثالث

المقاصد الدعوية المتعلقة بأتباع الدعوة وتطبيقاتها المعاصرة

أتباع الدعوة هم شريانها الحي وقلبها النابض، وبهم تستمر -بإذن الله- وبضعفهم وتخاذلهم تضعف، وربما تنتهي كليًّا، لذا كانت عناية النبي ﷺ بالصحابة تفوق كل عناية، وفيما يلي بيان أبرز المقاصد المتعلقة بهم، والتطبيقات المعاصرة لها.

المطلب الأول

المقاصد الدعوية المتعلقة بأتباع الدعوة

لا شك أنَّ للنبي ﷺ في دعوته مقاصد كان يهدف لتحقيقها في أصحابه وأتباع دعوته، ومن أبرز تلك المقاصد ما يلي:

المقصد الأول: المحافظة على الأتباع:

لقد اعتنى النبي ﷺ بالمحافظة على أصحابه من أن تَستأصل شأفتهم قوى الباطل؛ لأنَّ في بقائهم قوةٌ للإسلام واستمرارًا للدعوة، فهم لا يزالون يزيدون ولا ينقصون حتى يأذن الله لهم بالنصر والتمكين، وقد اتخذ ﷺ للمحافظة على أتباع دعوته أساليب منها: أمره ﷺ لمن يسلم من غير أهل مكة بالعودة إلى أقوامهم إلى حين سماعهم بظهوره ثم يأتوه حينئذ، فقد أمر أبا ذر الغفاري رضي الله عنه حين أسلم فقال له: «**ارْجِعْ إِلَى قَوْمِكَ فَأَخْبِرْهُمْ حَتَّى يَأْتِيَكَ أَمْرِي**»[(١)]، وقال لعمرو بن عَبَسة رضي الله عنه: «**إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَوْمَكَ هَذَا،**

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب: سلام أبي ذر، حديث رقم (٣٨٦١)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبي ذر، حديث رقم (٢٤٧٤).

وَلَكِنْ ارْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ، فَإِذَا سَمِعْتَ بِي قَدْ ظَهَرْتُ فَالْحَقْ بِي»[١]. وقال لراعي الغنم الذي سقاه في الهجرة وآمن به وأراد السير معه: «**إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَوْمَكَ، فَإِذَا بَلَغَكَ أَنِّي قَدْ ظَهَرْتُ فَأْتِنَا»**[٢].

ومنها: اختياره ﷺ لدار الأرقم بن أبي الأرقم مأوى للمؤمنين من أهل مكة، يلتقي بهم ويطمئن عليهم ويوجههم بما يراه مناسبا في كل مرحلة من مراحل الدعوة.

ومنها: أمره ﷺ المؤمنين من أهل مكة بالهجرة إلى الحبشة مرتين، ثم بالهجرة إلى المدينة، وما ذاك إلا للحفاظ عليهم.

قال المباركفوري رحمه الله: «كان من مقتضيات هذه الظروف المتأزمة أن يختار رسول الله ﷺ موقفًا حازمًا يُنقذ به المسلمين عما دهمهم من البلاء، ويخفف وطأته بقدر المستطاع، وقد اتخذ رسول الله ﷺ خطوتين حكيمتين كان لهما أثرهما في تسيير الدعوة وتحقيق الهدف، وهما:

١- اختيار دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي مركزًا للدعوة ومقرًّا للتربية.

٢- أمر المسلمين بالهجرة إلى الحبشة»[٣].

ومنها: أمره ﷺ أصحابه بكفِّ أيديهم عن حمل السلاح ونهيهم عن قتال الناس حين شكوا له حالهم بعد إسلامهم، فقال: «**إِنِّي أُمِرْتُ بِالْعَفْوِ، فَلَا تُقَاتِلُوا»**[٤]، وقال للمبايعين ليلة العقبة حين أظهروا استعدادهم للميل على أهل منى بسيوفهم: «**إِنَّا لَمْ نُؤْمَرْ بِذَلِكَ»**[٥].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند، حديث رقم (١٧٠١٩)، وصحح إسناده الشيخ شعيب الأرناؤوط.

(٢) أخرجه الحاكم، حديث رقم (٤٢٧٣)، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٣) الرحيق المختوم (ص١١٤).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٩٧).

ومنها: استقباله ﷺ للصحابة ومجالسته لهم وتعليمه إيَّاهم في بيت سعد بن خيثمة أول نزوله قباء بعد الهجرة.

ولَمَّا استقر بالمدينة كان أول أعماله بناء المسجد؛ ليكون مكانًا للصلاة ومقرًّا للقيا الأصحاب وتعليمهم، وتفقد أحوالهم، وفيه إدارة الدعوة في كل جوانبها.

وقد بلغت شفقته ﷺ على أصحابه وعنايته بهم أن بنى الصفَّة[١] في مؤخرة المسجد؛ لتكون منزلا يُؤوي الفقراء المهاجرين؛ ليتفقد أحوالهم عن قرب، ويشاركوه جوعه وشبعه: فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: آالله الذي لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشدُّ الحجر على بطني من الجوع، فمرَّ بي أبو القاسم ﷺ فتبسم حين رآني وعرف ما في نفسي وما في وجهي، ثم قال: «**يَا أَبَا هِر**». قلت: لبيك يا رسول الله. قال: «**الحَقْ**». ومضى فتبعته، فدخل فاستأذنت فأذن لي، فدخل فوجد لبنا في قدح فقال: «**مِنْ أَيْنَ هَذَا اللَّبَنُ؟**» قالوا: أهداه لك فلان أو فلانة. قال: «**يَا أَبَا هِر**». قلت: لبيك يا رسول الله. قال: «**الحَقْ إِلَى أَهْلِ الصُّفَّةِ فَادْعُهُمْ لِي**». قال: وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون إلى أهل ولا مال ولا على أحد، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئا، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها، فساءني ذلك فقلت: وما هذا اللبن في أهل الصفة؟! كنت أحقُّ أنا أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها، فإذا جاءوا أمَرَني فكنت أنا أعطيهم، وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن، ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ بد، فأتيتهم فدعوتهم فأقبلوا، فاستأذنوا فأذن لهم، وأخذوا مجالسهم من البيت. قال: «**يَا أَبَا هِر**». قلت: لبيك يا رسول الله. قال: «**خُذْ فَأَعْطِهِمْ**». قال: فأخذت القدح فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ثم يرد عليَّ

(١) **الصُّفَّة:** «مكان في مؤخر المسجد النبوي مظلل، أُعدَّ لنزول الغرباء فيه ممن لا مأوى له ولا أهل، وكانوا يكثرون فيه ويقلون بحسب من يتزوج منهم أو يموت أو يسافر». فتح الباري (٦/ ٥٩٥).

القدح، فأعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ثم يرد عليَّ القدح، حتى انتهيت إلى النبي ﷺ وقد رَوِيَ القوم كلهم، فأخذ القدح فوضعه على يده فنظر إليَّ فتبسَّم فقال: «**أَبَا هِر**». قلت: لبيك يا رسول الله. قال: «**بَقِيتُ أَنَا وَأَنْت**». قلت: صدقت يا رسول الله. قال: «**اقْعُدْ فَاشْرَبْ**». فقعدت فشربت. فقال: «**اشْرَبْ**». فشربت، فما زال يقول: «**اشْرَبْ**». حتى قلت: لا، والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلكًا. قال: «**فَأَرِني**». فأعطيته القدح، فحمد الله وسمى وشرب الفضلة[(١)]. فهذا شاهد من شواهد رعايته ﷺ لأصحابه، حيث يتفقد أحوالهم ويقاسمهم طعامه وشرابه.

المقصد الثاني: تزكية الأتباع:

التزكية في اللغة: التنمية والتطهير[(٢)].

وفي الاصطلاح: إكساب الزكاة وهي: نماء النفس بما هو لها بمنزلة الغذاء للجسم، وأصلها نفي ما يُستقبح قولًا أو فعلًا[(٣)].

والتزكية إحدى مهام النبوة التي بعث الله تعالى نبيه ﷺ لأجلها وكلَّفه بها، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة:٢][(٤)]. فجعل سبحانه مهمة

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه، حديث رقم (٦٤٥٢).

(٢) ينظر: لسان العرب (١٤/ ٣٥٨).

(٣) ينظر: التوقيف على مهمات التعاريف (ص١٧٤).

(٤) ذكر الله تعالى ذلك في القرآن في أربعة ثلاثة مواضع أخر، فقال: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة:١٢٩]، وقال: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٥١]، وقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤].

النبي ﷺ ثلاثة أمور: تلاوة القرآن على الناس والنذارة والبشارة به، وتعليم من استجاب منهم الحلال والحرام، وتزكية الأتباع وتطهيرهم بالتوحيد من الشرك، وبالتوبة من كل الذنوب والمعاصي[١].

وقد سلك النبي ﷺ في تزكية أصحابه وسائل وأساليب متعددة منها:

أولًا: تقوية الرابطة الإيمانية بين الأتباع:

إنَّ من طبائع النفوس البشرية التآلف والانضمام إلى بعضهم، فيجتمعون على نسب أو أرض أو لغة مشتركة و غيرها، إلا أنَّ الإسلام جاء بالاجتماع على غير ذلك كلِّه، جاء بالاجتماع على الإيمان والوحي المعصوم، لذا سارع النبي ﷺ أول هجرته إلى المدينة إلى عقد المؤآخاة بين المهاجرين والأنصار، فكانوا أول الأمر يتوارثون بعقد الأخوة، ثم نسخ التوارث بقول الله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ [الأحزاب:٦]، وبقي بينهم التناصر على الحق، والتعاقد على الإيمان والقرآن والجهاد وسائر العبادات، قال النووي رحمه الله: «ما يتعلق بالإرث فيستحب فيه المخالفة عند جماهير العلماء، وأمَّا المؤآخاة في الاسلام[٢] والمحالفة على طاعة الله تعالى والتناصر في الدين والتعاون على البر والتقوى وإقامة الحق فهذا باق لم ينسخ، وهذا

(١) ينظر: تفسير الكريم الرحمن لابن سعدي (ص١٥٥).

(٢) وردت كثير من الأحاديث التي تثبت المؤآخاة بين المسلمين، كحديث أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ آخى بين أبي عبيدة بن الجراح وبين أبي طلحة الأنصاري. أخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب مؤاخاة النبي ﷺ بين أصحابه، حديث رقم (٢٥٢٨)، وقدم عبد الرَّحمن بن عوف المدينة فآخى النَّبي ﷺ بينه وبين سعد بن الرّبيع الأنصاري. أخرجه البخاري، كتاب البيوع، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، حديث رقم (٢٠٤٩).

معنى قوله ﷺ في هذه الأحاديث: «**وأيُّما حِلفٍ كان في الجاهلية لم يزده الاسلام إلا شدَّة**»، وأمَّا قوله ﷺ: «**لَا حِلْفَ فِي الْإِسْلَامِ**»[(١)]، فالمراد به: حلف التوارث، والحلف على ما منع الشرع منه، والله أعلم»[(٢)].

وقد علَّق النبي ﷺ على الأخوة الإيمانية أحكاما دينية وفضائل أخروية فقال: «**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يُسْلِمُهُ، مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ فَإِنَّ اللهَ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[(٣)].

وخرج ﷺ في غزوةٍ ومعه عدد كبير من المهاجرين والأنصار، فاقتتل غلامان: غلام من المهاجرين وغلام من الأنصار، فنادى المهاجري: يا للمهاجرين، ونادى الأنصاري: يا للأنصار. فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: «**مَا هَذَا؟! دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ؟!**» قالوا: لا يا رسول الله؛ إلا أنَّ غلامين اقتتلا، فكسع أحدهما الآخر، قال: «**فَلَا بَأْسَ، وَلْيَنْصُرِ الرَّجُلُ أَخَاهُ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا، إِنْ كَانَ ظَالِمًا فَلْيَنْهَهُ، فَإِنَّهُ لَهُ نَصْرٌ وَإِنْ كَانَ مَظْلُومًا فَلْيَنْصُرْهُ**»[(٤)].

وبهذا نجد أنَّ النبي ﷺ حطَّم تناصر الجاهلية بكل أنواعه وأحلَّ محلَّه التناصر على الإيمان والتقوى، قال ابن تيمية ﷺ: «كل ما خرج عن دِعوة الإسلام والقرآن من نسب

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب مؤاخاة النبي ﷺ بين أصحابه، حديث رقم (٢٥٢٩).

(٢) شرح النووي على مسلم (١٦/ ٨٢).

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب المؤاخاة، حديث رقم (٤٨٩٣)، وصححه الألباني.

(٤) متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب ما ينهى من دعوة الجاهلية، حديث رقم (٣٥١٨)، ومسلم واللفظ له، كتاب البر والصلة، باب نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا، حديث رقم (٢٥٨٤).

أو بلد أو جنس أو مذهب أو طريقة فهو من عزاء الجاهلية؛ بل لما اختصم رجلان من المهاجرين والأنصار فقال المهاجري: يا للمهاجرين وقال الأنصاري: يا للأنصار قال النبي ﷺ: «**أَبِدَعْوَى أَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ وأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُم؟!**»[١]. وغضب لذلك غضبًا شديدًا»[٢].

ثانيًا: معايشة الأتباع:

كان النبي ﷺ دائم المخالطة والمعايشة لأصحابه حتى في زمن الشدة بمكة، حين كان يلتقيهم بدار الأرقم بن أبي الأرقم، واستمر على ذلك بعد الهجرة في كل أحواله، قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: إنَّا والله قد صحبنا رسول الله ﷺ في السفر والحضر، فكان يعود مرضانا، ويتبع جنائزنا، ويغزو معنا، ويواسينا بالقليل والكثير[٣].

وكان كلما عرض للمسلمين عمل يحتاج إلى جهد جماعي مشترك نجد النبي ﷺ يشاركهم فيه؛ ليرفع معنوياتهم، ومن ذلك مشاركته لهم في بناء المسجد أول نزوله بالمدينة، حيث طفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللبن في بنيانه ويدعو لهم[٤]. وشاركهم أيضًا في حفر الخندق، فعن البراء رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ ينقل التراب يوم الخندق حتى اغبرَّ بطنه وهو يقول:

والله لولا الله ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا
إنَّ الألى قد بغوا علينا ... إذا أرادوا فتنة أبينا

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٢٨).
(٣) أخرجه أحمد في المسند، حديث رقم (٥٠٤)، وحسنه الأرناؤوط.
(٤) أخرجه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، حديث رقم (٣٩٠٦).

ورفع بها صوته (أبينا أبينا)[١]. وكذلك كان يشـــاركهم بنفسه في غالب الغزوات والمعارك الفاصلة.

ولمَّا دعي إلى طعام يوم الخندق دعا كل من معه من المهاجرين والأنصار: فعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: لما حُفر الخندق رأيت بالنبي ﷺ خمصًا شديدًا، فانكفأت إلى امرأتي فقلت: هل عندك شيء فإنِّي رأيت برسول الله ﷺ خمصًا شديدًا، فأخرجت إليَّ جرابا فيه صاع من شعير، ولنا بهيمة داجن فذبحتها، وطحنَت الشعير، ففرغَت إلى فراغي، وقطَّعتها في برمتها ثم ولَّيتُ إلى رسول الله ﷺ فقالت: لا تفضحني برسول الله ﷺ وبمن معه. فجئته فساررته فقلت: يا رسول الله، ذبحنا بهيمة لنا وطحنا صاعًا من شعير كان عندنا، فتعال أنت ونفرٌ معك. فصاح النبي ﷺ فقال: «**يَا أَهْلَ الخَنْدَقِ، إِنَّ جَابِرًا قَدْ صَنَعَ سُورًا**[٢]، **فَحَيَّ هَلًا بِهَلّكُمْ**»، فقال رسول الله ﷺ: «**لَا تُنْزِلُنَّ بُرْمَتَكُمْ، وَلَا تَخْبِزُنَّ عَجِينَكُمْ حَتَّى أَجِيءَ**». فجئت وجاء رسول الله ﷺ يقدم الناس، حتى جئت امرأتي، فقالت: بك وبك. فقلت: قد فعلتُ الذي قلتِ. فأخرجت له عجينًا فبصق فيه وبارك، ثم عمد إلى برمتنا فبصق وبارك، ثم قال: «**ادْعُ خَابِزَةً فَلْتَخْبِزْ مَعِي، وَاقْدَحِي**[٣] **مِنْ بُرْمَتِكُمْ وَلَا تُنْزِلُوهَا**». وهم ألفٌ، فأُقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لتغط كما هي، وإن عجيننا ليخبز كما هو[٤].

فهذه بعض مشاركاته ﷺ لأصحابه في العسر واليسر، يؤانسهم ويشجعهم ويُعلِّق قلوبهم بالله تعالى، حتى صنع جيلًا عظيمًا حمل الإسلام للعالمين.

---

(١) المصدر نفسه، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، رقم (٤١٠٤).

(٢) **صنع سُورًا**: أي: صنع طعامًا يدعو الناس إليه، والسُّور لفظة فارسية. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (ص٤٥٣).

(٣) أي: أفرغي. ينظر: نفس المصدر (ص٧٣٥).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب: غزوة الخندق، حديث رقم (٤١٠٢).

ولا يخفى ما في هذه المعايشة من التأثير الخفي على الصحابة ﷺ حين يرون عبادة النبي ﷺ واجتهاده وصدقه وأمانته، وحرصه على الدعوة وامتثال ما يدعو إليه من الخير، واحتماله الأذى في سبيل الله، والصدع بالحق، وتأليفه القلوب، فيرون تطبيقا عمليا للدين الذي يدعو إليه، فكان ذلك مؤثرًا في النفوس أشد من تأثير التعليم المباشر كما هو معلوم، وفيه فائدة أخرى حيث يكتشف الداعية أصحابه ويعرف قدراتهم ومواهبهم لتُستثمر في الدعوة إلى الله، ويدل عليه ما قاله ﷺ عن بعض أصحابة ﷺ: «**أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهُمْ فِي أَمْرِ اللهِ عُمَرُ، وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالحَلَالِ وَالحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَأَقْرَؤُهُمْ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ وَأَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ**»[(١)].

ثالثًا: تعزيز يقينهم بالحق الذي هم عليه ونشر التفاؤل بينهم:

لم يكن النبي ﷺ يائسًا ولم يقنط من نصر ربه له، حتى في أشد المواقف صعوبة بمكة، بل كان يبشر بنصر الله لدينه وأوليائه، فعن خباب بن الأرت ﷺ قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردةً له في ظلِّ الكعبة قلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ قال: «**كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللهِ لَيُتِمَنَّ هَذَا الأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**»[(٢)].

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: أبواب المناقب، حديث رقم (٣٧٩٠)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، حديث رقم (٣٦١٢).

ومن تأمل هذا الحديث ظهرت له ثلاث فوائد:

الأولى: أنَّ الابتلاء مصير حتمي لكل من ادَّعى الإيمان بالله تعالى تمحيصًا لهم واختبارًا لصدقهم في دعوى الإيمان، قال تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت:٢، ٣].

الثانية: أنَّ سنن الله لا تتبدل، فلا يأتي النصر والتمكين في الدنيا ولا دخول الجنة في الآخرة إلا بعد البلاء والشدة، قال تعال: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة:٢١٤].

الثالثة: أنَّ الاستعجال آفة الدعوة، فكلُّ الأمور بتدبير الحكيم العليم، لا يقدمها استعجال الناس لها، ولذا ختم ﷺ حديثه بقوله: «**وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**».

ولقد نال المؤمنين بمكة ألوان من الأذى النفسي والجسدي بسبب إيمانهم بالله واتباعهم لنبيه ﷺ، وانهال المشركون عليهم سخرية وضربا وتعذيبا، بل بلغ التعذيب ببعضهم القتل بأبشع صوره، والنبي ﷺ لا يملك إلا أن يحثهم على الصبر ويأمرهم به، فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ مرَّ بعمار بن ياسر وأهله وهم يعذبون فقال: «**أَبْشِرُوا آلَ عَمَّارٍ، وَآلَ يَاسِرٍ، فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْجَنَّةُ**»(١).

ولمَّا حاوره المشركون وفاوضوه في التنازل عن دعوته بيَّن لهم بيانًا شافيًا فقال ﷺ: «**اللهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ رَسُولًا، وَأَنْزَلَ عَلَيَّ كِتَابًا، وَأَمَرَنِي أَنْ أَكُونَ لَكُمْ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، فَبَلَّغْتُكُمْ**

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب: معرفة الصحابة، باب: مناقب عمار بن ياسر، حديث رقم (٥٦٦٦)، وقال الذهبي: صحيح على شرط مسلم.

رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ، فَإِنْ تَقْبَلُوا مِنِّي مَا جِئْتُكُمْ بِهِ فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنَّ تَرُدُّوهُ عَلَيَّ أَصْبِرْ لِأَمْرِ اللهِ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ»[(١)]، فناله بسبب دعوته صنوف من الأذى وهو ثابت صابر ممتثل أمر ربه له بقوله: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم:٦٠]، ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف:٣٥]. فكان في صبره على الأذى في سبيل الله قدوة للمؤمنين إلى قيام الساعة.

وكان ﷺ دائم الرجاء بربه حَسَنَ الظنِّ به تعالى أن يُبدِّل الأحوال للأفضل، ويهدي الناس للحق الذي يدعوهم إليه، وهو ينشر البشائر[(٢)] ويغرس التفاؤل في نفوس المؤمنين، ومن ذلك أنه بشَّر الصحابة ﷺ بفتح الشام وفارس واليمن وهو في كرب شديد حين حفر الخندق، وحالهم كما وصف الله تعالى: ﴿ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴾ [الأحزاب:١٠]، فقد اعترضتهم صخرة عند الحفر فأخبروا بها النبي ﷺ، فجاء فأخذ المعول فقال: «**بِسْمِ اللهِ**»، فضرب ضربة فكسر ثلث الحجر، وقال: «**اللهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا**». ثم قال: «**بِسْمِ اللهِ**» وضرب أخرى فكسر ثلث الحجر، فقال: «**اللهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ الْمَدَائِنَ، وَأُبْصِرُ قَصْرَهَا الْأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا**»، ثم قال: «**بِسْمِ اللهِ**»، وضرب ضربة أخرى فقلع بقية الحجر فقال: «**اللهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ، وَاللهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا**»[(٣)].

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير (١٧/ ٥٥٥)، وينظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٣٣).

(٢) **البشائر:** جمع بِشارة، وهي الخبر السار الذي لا يعلمه المخبَر به. ينظر: تاج العروس (١٠/ ١٨٥)، والمعجم الوسيط (١/ ٨٥).

(٣) أخرجه أحمد في المسند، حديث رقم (١٨٦٩٤)، وأصله عند البخاري، كتاب: المغازي، باب: غزوة الخندق، حديث رقم (٤١٠١).

ولما جاءه رجال يشتكون الفاقة وقطع السبيل، وكان عنده عدي بن حاتم ﷺ قال له: «**يَا عَدِيُّ، هَلْ رَأَيْتَ الحِيرَةَ؟**» قال: لم أرها، وقد أنبئت عنها. قال: «**فَإِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ، لَتَرَيَنَّ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الحِيرَةِ، حَتَّى تَطُوفَ بِالكَعْبَةِ لَا تَخَافُ أَحَدًا إِلَّا اللهَ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى**». قال: كسرى بن هرمز؟! قال: «**كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ، لَتَرَيَنَّ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ، يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ مِنْهُ**»[(١)]. وعن ثوبان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا -أَوْ قَالَ: مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا- حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا**»[(٢)].

فهذه البشائر أتت غالبًا في أوقات الشدة والخوف، ومع هذا يبشرهم ويغرس التفاؤل في نفوسهم؛ بل كان ﷺ يتفاءل بكل ما يرى أو يسمع من الألفاظ والأسماء والمواقف الحسنة، وربما يغير القبيح منها إلى حسن تفاؤلا به، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا طِيَرَةَ، وَخَيْرُ الْفَأْلِ الْكَلِمَةُ الصَّالِحَةُ**»[(٣)].

(١) أخرجه البخاري، كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، حديث رقم (٣٥٩٥).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، حديث رقم (٢٨٨٩).

(٣) أخرجه ابن حبان، كتاب: العدوى والطيرة والفأل، باب: ذكر وصف الفأل الذي كان يعجب رسول الله ﷺ، حديث رقم (٦١٢٥)، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

وقد جاءه رجل فسأله عن اسمه فقال: حزن. قال: «**أَنْتَ سَهْل**»[١]. ولَمَّا صُدَّ عن البيت يوم الحديبية وتعاقبت الرسل بينه وبين قريش حتى جاء آخرهم وهو سهيل بن عمرو، قال النبي ﷺ لما رآه: «**لَقَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ**»[٢]. قال ابن القيم: في الفوائد من قصة الحديبية: «منها: استحباب التفاؤل، وأنَّه ليس من الطيرة المكروهة»[٣].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا غزا بنا قومًا لم يكن يغزو بنا حتى يصبح وينظر، فإن سمع أذانا كفَّ عنهم وإن لم يسمع أذانا أغار عليهم، قال: فخرجنا إلى خيبر فانتهينا إليهم ليلًا، فلمَّا أصبح ولم يسمع أذانا ركب، قال: فخرجوا إلينا بمكاتلهم ومساحيهم، فلمَّا رأوا النبي ﷺ قالوا: محمد والله، محمد والخميس. قال: فلمَّا رآهم رسول الله ﷺ قال: «**اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، خَرِبَتْ خَيْبَرُ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ**»[٤]. قال ابن القيم: في فوائد غزوة خيبر: «منها: جواز التفاؤل؛ بل استحبابه بما يراه أو يسمعه مما هو من أسباب ظهور الإسلام وإعلامه، كما تفاءل النبي ﷺ برؤية المساحي والفؤوس والمكاتل مع أهل خيبر فإنَّ ذلك فألٌ في خرابها»[٥].

وكان هذا ديدنه ﷺ؛ لعلمه أنَّ النفوس البشرية دائمة التقلب فتحتاج للتطمين والتبشير؛ والنفوس المؤمنة تشتد حاجتها للتفاؤل، وحسن الظن بالله، فمتى تفاءَلَت

---

(١) أخرجه البخاري، باب اسم الحزن، حديث رقم (٦١٩٠).
(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الشروط، باب: الشروط في الجهاد والمصالحة، حديث رقم (٢٧٣٢).
(٣) زاد المعاد (٣ / ٢٦٧).
(٤) متفق عليه، أخرجه البخاري واللفظ له، كتاب: الأذان، باب: ما يحقن بالأذان من الدماء، حديث رقم (٦١٠)، ومسلم، كتاب: النكاح، باب: فضيلة إعتاق أمة ثم يتزوجها، حديث رقم (١٣٦٥).
(٥) زاد المعاد (/ ٣٠٦).

بالخير أورثت أصحابها سعة الصدر وعلو الهمة، بخلاف المتشائمين؛ فإنَّهم ضعاف الهمة، لا تحدوهم غاية حميدة، ولا يدفعهم هدفٌ سامٍ.

رابعًا: التثبيت والتدريب:

لقد كان الصحابة ﷺ يرون من النبي ﷺ مواقف الثبات على مبادئه، فلم تثنه معارضة المشركين له ولا تكذيبهم إيَّاه، ولم يفتَّ في عضده ما لقيه من بعض أقاربه من التخاذل عن نصرته، بل كان ثابتًا على دعوته ينتظر موعود ربه له.

ولقد تناقلت مكة جواب رسول الله ﷺ لعمه أبي طالب حين قال له: ان بني عمك زعموا أنَّك تؤذيهم في ناديهم وفي مجالسهم فانته عن ذلك. فحلَّق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء فقال: «**مَا أَنَا بِأَقْدَرَ أَنْ أَدَعَ ذَلِكَ مِنْكُمْ أَنْ تُشْعِلُوا مِنْهَا شُعْلَةً** -يعني الشمس-»[(١)].

فعلى مثل هذا الثبات تربى الصحابة ﷺ، فثبتوا على دينهم مع شدة ما أصابهم من العذاب، فقد عُذِّب بلال ﷺ في رمضاء مكة وهو ثابت على دينه، قال عبدالله بن مسعود ﷺ: بلال هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأعطوه الولدان، وأخذوا يطوفون به شعاب مكة وهو يقول أحد، أحد[(٢)].

وممن ثبت أيضًا على إيمانه فلم تزحزحه ألوان العذاب: حمامه أم بلال بن رباح، وعامر بن فهيرة، وأبو فكيهة، وجارية بني المؤمل، والنهدية وابنتها، وزنيرة، حتى اشتراهم أبو بكر ﷺ وأعتقهم[(٣)].

وثبت مصعب بن عمير ﷺ على دينه رغم شدة التضييق عليه من أمِّه، وهو الشاب المنعم، فلم يذق النعيم بعدُ حتى لقي ربه[(٤)].

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير، حديث رقم (٥١١)، وحسنه الألباني في الصحيحة برقم (٩٢).
(٢) أخرجه أحمد في المسند، حديث رقم (٣٨٣٢) وحسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط.
(٣) أخرجه ابن عساكر في التاريخ (٣٠/ ٦٧).
(٤) ينظر: الإصابة (٦/ ١٢٣).

بل ثبت كل الصحابة الذين آمنوا بمكة مع النبي ﷺ لما حوصروا في شعب أبي طالب ثلاث سنين فلم يثنهم الحصار ولا المقاطعة والتضييق عن دينهم ومبادئهم رضي الله عنهم أجمعين.

وكان يصطحب بعضهم معه في مهام الدعوة أو يكلفهم بها، كاصطحابه عثمان بن عفان ﷺ للمرور على المؤمنين المعذبين وتثبيتهم والشدِّ من أزرهم، واصطحاب زيد بن حارثة ﷺ في خروجه إلى الطائف، إضافة لاصطحاب أبي بكر ﷺ في أكثر مواقفه الدعوية من البعثة إلى الوفاة، واستخلافه عند الهجرة علي بن أبي طالب ﷺ في مكة؛ ليؤدي الأمانات لأهلها.

وإنَّ الصحابة ﷺ كانوا متميزين في إيمانهم وعلمهم وعملهم بالدِّين والتضحية له، ومع هذا كان النبي ﷺ يذكر فضائل أصحابه ومنزلتهم عنده، ويثني على كل واحد بما تميز به تكريمًا له وتشجيعًا، ومن ذلك قوله ﷺ عن أبي بكر ﷺ: «**إِنَّ اللهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ فَقُلْتُمْ كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ صَدَقَ، وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُوا لِي صَاحِبِي**»[(١)]. وقال عن عمر ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ سَالِكًا فَجًّا قَطُّ، إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ**»[(٢)]. وقال عن عثمان ﷺ: «**أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ**»[(٣)]. وقال عن علي ﷺ: «**لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ**

(١) أخرجه البخاري، كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: **لو كنت متخذًا خليلًا**، حديث رقم (٣٦٦١).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب عمر، حديث رقم (٣٦٨٣)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل عمر، حديث رقم (٢٣٩٦).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عثمان بن عفان ﷺ، حديث رقم (٢٤٠١).

اللهُ وَرَسُولُهُ»[١]. وقال ﷺ عن معاذ بن جبل رضي الله عنه: «**أَعْلَمُ النَّاسِ بِحَلَالِ اللهِ وَحَرَامِه**»[٢]. وقال في الثناء على أبي قتادة وسلمة بن الأكوع رضي الله عنهما: «**كَانَ خَيْرَ فُرْسَانِنَا الْيَوْمَ أَبُو قَتَادَةَ، وَخَيْرَ رَجَّالَتِنَا سَلَمَةَ**»[٣]... وغيرهم.

ولا يخفى أثر هذا الثناء عليهم رضي الله عنهم، إذ كانوا يزدادون معه عملًا للدين وتضحية له، حتى كانوا حملة الإسلام والدعاة إليه من بعده، ففتحوا الشام وفارس ومصر، وانتشر الإسلام بعدهم في العالم، ولم يزل يمتد وينتشر إلى يومنا هذا.

خامسًا: ترسيخ تعظيم الله وحسن الظن به في النفوس المؤمنة:

التعظيم المطلق حقٌّ لله تعالى لا يشاركه فيه أحد، لذا أمر الله به نبيه ﷺ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر:١-٥]، فأمره بإنذار قومه، وتعظيم الله في خاصة نفسه، والعناية بطهارة ظاهره وباطنه، والبراءة من كل معبود مع الله من الأصنام والأوثان.

وقد امتثل ﷺ ذلك في حياته كلها، ففي أشد المواقف نجده رابط الجأش قويَّ الصلة بالله ﷻ، ففي الغار يقول لصاحبه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠]، وفي بدر يقول: «**اللهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي**»[٤]. ولَّما رفع أبو سفيان صوته مرتجزًا في أحد: أُعل هبل، أُعل هبل. قال النبي ﷺ: «**أَلَا تُجِيبُوا لَه؟**» قالوا:

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، حديث رقم (٢٤٠٤).

(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٢٢٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٤٣٦).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة ذي قرد، حديث رقم (٢٤٠١).

(٤) أخرجه مسلم، كتاب: الجهاد والسير، باب: الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، حديث رقم (١٧٦٣).

يا رسول الله، ما نقول؟ قال: «**قُولُوا: اللهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ**»، فقال أبو سفيان: إنَّ لنا العزى ولا عزى لكم. فقال ﷺ: «**أَلَا تُجِيبُوا لَه؟**» قالوا: يا رسول الله، ما نقول؟ قال: «**قُولُوا اللهُ مَوْلَانَا، وَلَا مَوْلَى لَكُمْ**»[(١)]. ولا يخفى ما في هذا من تعظيم لله في نفوس أصحابه وتعويدهم التوكل عليه سبحانه.

والله تعالى يجعل المنح في أجواف المحن، ثم يجعل العاقبة للمؤمنين الصادقين، وإذا تأملنا سيرة النبي ﷺ وجدنا أنَّ شدَّة البلاء والإيذاء الذي وقع على النبي ﷺ والمؤمنين تضمَّن في طياته الخير الكثير في الدنيا مع حسن العاقبة في الآخرة، إذ ربما يكره الإنسان شيئًا وفيه خير كثير لا يعلمه إلا الله، قال ﷻ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦]، وقال: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء:١٩].

فحسن ظنه ﷺ بربه جعل قدر الله له على ما يحبه ويريده، فما أصابه من أذى أبي جهل كان سببًا في إسلام حمزة رضي الله عنه[(٢)]، وشدة عمر بن الخطاب على ليلى بنت أبي حثمة وزوجها عامر بن ربيعة كانت سببًا في رقَّة قلبه[(٣)]، واستجاب الله دعاء النبي ﷺ له بالهداية، بقوله: «**اللَّهُمَّ أَعِزَّ الْإِسْلَامَ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ**»[(٤)] فكان هذان سببان لإسلامه رضي الله عنه. وإعراض أهل الطائف عنه وإيذاؤهم له جعل مَلَك الجبال يأتمر بأمره إن أراد أن

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الجهاد والسير، ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب، حديث رقم (٣٠٣٩).

(٢) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٩٢).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب: معرفة الصحابة، باب: ذكر ليلى بنت أبي حثمة، حديث رقم (٦٨٩٥)، وسكت عنه الذهبي في التلخيص. وينظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٤٢).

(٤) أخرجه ابن ماجة، كتاب الإيمان وفضائل الصحابة، باب فضل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حديث رقم (١٠٥)، وصححه الألباني.

يطبق على أهل مكة الجبال، فيأبى ﷺ وهو محسن الظنَّ بالله أن يهديهم للحق، قالت عائشة رضي الله عنها للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: «**لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ العَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ، ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟**[(١)] فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»[(٢)].

بل زاد رجاؤه في الله حين شارف دخول مكة فقال له زيد بن حارثة رضي الله عنه وكان رفيقه في خروجه للطائف: كيف تدخل مكة؟! فقال: «**يا زيد، إنَّ الله جاعل لما ترى فرجًا ومخرجًا، وإنَّ الله ناصر دينه، ومظهر نبيه**»[(٣)].

ولما تجرأ أحد سفهاء مكة فألقى التراب على رأسه ﷺ جعلت إحدى بناته تغسله وتبكي، فيقول لها: «**لا تبكي يا بنيَّه، فإنَّ الله مانعٌ أباك**»[(٤)].

---

(١) **الأخشبُ**: كُلُّ جبل خَشِنٍ غليظ الحجارة. والأخشبان بمكة هما الجبلَانِ المحيطان بها، واسمهما: أبو قُبَيْس، والأَحْمَرُ، والأحمر هو الجبل المشرف وجهه على قُعَيْقِعَان. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (ص٢٦٤).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب: بدء الخلق، باب: إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء آمين، حديث رقم (٣٢٣١)، ومسلم، كتاب: الجهاد والسير، باب: ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين، حديث رقم (١٧٩٥).

(٣) ينظر: الرحيق المختوم (ص١٥٢).

(٤) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٦٤)، وروضة الأنوار (ص٦٣).

وعندما بلغه خبر عير قريش قبيل بدر استنهض أصحابه للخروج معلقا قلوبهم بالرجاء في الله تعالى وحسن الظن به وهو يقول: «**هَذِهِ عِيرُ قُرَيْشٍ فِيهَا أَمْوَالُهُمْ فَاخْرُجُوا إِلَيْهَا لَعَلَّ اللهَ يُنْفِلُكُمُوهَا**»(١).

ولقد صار حسن الظن بالله خلق أهل الإسلام، حتى في اللحظات الأخيرة التي يودِّعون فيها الدنيا مقبلين على الآخرة، فعن جابر ﷺ أنَّه سمع النبي ﷺ قبل وفاته بثلاث يقول: «**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللهِ الظَّنَ**»(٢).

وأمَّا التشاؤم وسوء الظن بالله تعالى فليس من الإسلام، ولا من أخلاق المسلمين، قال الشيخ ابن سعدي ﷺ: «وهذا المذهب المهين -وهو التشاؤم والكسل- لا يعرفه الإسلام ولا يرتضيه، بل يُحذِّر منه أشدَّ تحذير، ويبين للناس أنَّ النجاح مأمول وأنَّ مع العسر يسرًا، وأنَّه سيجعل بعد عسر يسرًا، ويُبين أنَّه لا أضرَّ عليهم من اليأس والقنوط، فليتَّقِ هؤلاء المتشائمون ربهم، وليعلموا أنَّ المسلمين أقرب الأمم إلى النجاح الحقيقي»(٣).

المقصد الثالث: تعليم الأتباع:

لقد بعث الله تعالى النبي ﷺ معلمًا ومرشدًا للناس، فعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا، وَلَا مُتَعَنِّتًا، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا**»(٤).

وكان ﷺ يعلم الناس جماعات وأفرادًا، فمن تعليمه لمجموعهم ما رواه حذيفة ﷺ قال: قام فينا رسول الله ﷺ مقامًا ما ترك شيئًا يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة

(١) أخرجه الطبري في التفسير عن ابن عباس ﷺ (١٣/ ٣٩٩)، وهو عند ابن هشام في السيرة (٣/ ١٥٢، ١٥٣).
(٢) أخرجه مسلم، كتاب الجنة، باب الأمر بحسن الظن بالله، حديث رقم (٢٨٧٧).
(٣) رسالة الجهاد في سبيل الله (ص١٧٣)، مطبوع ضمن المجموعة الكاملة (ج١٣).
(٤) أخرجه مسلم، كتاب: الطلاق، باب: بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقًا إلا بالنية، حديث رقم (١٤٧٨).

إلا حدَّث به، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه[١]. وعن أبي موسى ﷺ قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**»[٢].

وأما تعليمه لأفرادهم فقد امتلأت به كتب السنة، ومن ذلك: تعليمه للمسيء في صلاته كيفية الصلاة الصحيحة[٣]، وتعليمه عمر بن أبي سلمة[٤] آداب الطعام حيث قال له: «**يَا غُلَامُ، سَمِّ اللهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ**»[٥]، ووصى ابن عباس ﷺ بوصية جامعة فقال: «**يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ**»[٦].

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة، حديث رقم (٢٨٩١).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: في قوله عليه السلام: «**إن الله لا ينام**»، حديث رقم (١٧٩).

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب: الأذان، باب: وجوب القراءة للإمام والمأموم، حديث رقم (٧٥٧)، أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، حديث رقم (٣٩٧).

(٤) عمر بن أبي سلمة بن عبد الأسد القرشي، ربيب النبي ﷺ، ولد بالحبشة في السنة الثانية من الهجرة، كان في فسطاط علي يوم الجمل، وتوفي سنة ثلاث وثمانين من الهجرة. ينظر: الإصابة في تمييز الصحابة (٤/ ٥٩٢).

(٥) متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب: الأطعمة، باب: التسمية على الطعام والأكل باليمين، حديث رقم (٥٣٧٦)، أخرجه مسلم، كتاب: الأشربة، باب: آداب الطعام والشراب، حديث رقم (٢٠٢٢).

(٦) أخرجه الترمذي، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب: حديث حنظلة، حديث رقم (٢٥١٦)، وصححه الألباني.

وقد سلك ﷺ وسائل وأساليب متنوعة في تعليم أصحابه ﷺ، وكان من أبرزها التطبيق العملي للعبادات، وذلك بأن يفعل العبادة أمامهم ثم يأمرهم بالاقتداء به فيها، فقد توضأ أمامهم وقال: «**مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»(١). وقال لمالك ابن الحويرث(٢) وأصحابه ﷺ بعد مقامهم عنده عشرين ليلة يتعلمون منه: «**ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ، فَعَلِّمُوهُمْ وَمُرُوهُمْ، وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي، وَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ، فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ، ثُمَّ لِيَؤُمَّكُمْ أَكْبَرُكُمْ**»(٣). وفي الحج يقول لأصحابه: «**لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ**»(٤).

ومما يدل على أنَّ التعليم ورفع الجهل عن الناس كان مقصدًا من مقاصد الدعوة النبوية أنَّ النبي ﷺ جعل فداء الكتبة من أسرى بدر -الذين ليس لهم مال- تعليم أبناء المسلمين القراءة والكتابة(٥). فلو لم يكن التعليم مقصدًا لما فوَّت ﷺ على المسلمين منفعة المال الذي يمكن تحصيله من الأسرى أو من أوليائهم؛ خاصة أنَّ المسلمين كانوا في أشد الحاجة له آنذاك.

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري، متاب الوضوء، باب: الوضوء ثلاثًا، ثلاثًا، حديث رقم (١٥٩)، أخرجه مسلم، كتاب الطهارة، باب صفة الوضوء وكماله، حديث رقم (٢٢٦).

(٢) هو: مالك بن الحويرث بن أشيم الليثي، وفد مع شبيبة من قومه إلى النبي ﷺ فأسلموا، وأقاموا عنده عشرين ليلة حتى أذن لهم بالعودة لقومهم، مات بالبصرة سنة أربع وسبعين. ينظر: الإصابة في تمييز الصحابة (٥/ ٧١٩).

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب: الأدب، باب: رحمة الناس والبهائم، حديث رقم (٦٠٠٨)، أخرجه مسلم، كتاب: المساجد، باب: من أحق بالإمامة؟، حديث رقم (٦٧٤).

(٤) أخرجه مسلم، كتاب: الحج، باب: استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبا وبيان قوله ﷺ: «**لتأخذوا مناسككم**»، حديث رقم (١٢٩٧).

(٥) أخرجه أحمد في المسند، حديث رقم (٢٢١٦)، وحسنه الأرناؤوط.

المقصد الرابع: وحدة الصف وجمع الكلمة:

إنَّ من أبرز ما كان يحرص عليه النبي ﷺ في دعوته اجتماع كلمة أصحابه ﷺ على الحق وقطع كل طريق يُفضي إلى النزاع والخصومة ويؤدي إلى الافتراق والاختلاف، ومما سلكه ﷺ لتحقيق ذلك ما يلي:

إزالة الفوارق والطبقات بين المسلمين:

لقد جاء الإسلام برفع الفوارق كلِّها، فلا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، وقد بدأ دعوته لجميع أصناف المدعوين، حيث كان من أوائل من أسلم أبو بكر من الرجال، وخديجة من النساء، وعلي من الصبيان، وزيد من الموالي، ثم تتابع الناس داخلين في دين الله، تجمعهم كلمة التوحيد مع أن أكثر أتباعه في أوائل دعوته من الضعفاء والفقراء والموالي، ويتضح ذلك من جواب أبي سفيان لهرقل لما سأله عن أتباع النبي ﷺ أهم أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟ فقال: بل ضعفاؤهم[(١)].

وكان النبي ﷺ ينزع فخر الجاهلية وطبقيتها من قلوب المؤمنين، ومن ذلك ماحكاه أبو ذر ﷺ عن نفسه فقال: إنَّه كان بيني وبين الرجل من إخوتي كلام، وكانت أمُّه أعجمية فعيرته بأمه، فشكاني إلى النبي ﷺ فقال لي: «**يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ**». قلت: يا رسول الله، من سبَّ الرجال سبوا أباه وأمه. قال: «**يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، هُمْ إِخْوَانُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَأَطْعِمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ، وَأَلْبِسُوهُمْ مِمَّا تَلْبَسُونَ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُم**»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، حديث رقم (٧).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب: الإيمان، باب: المعاصي من أمر الجاهلية، حديث رقم (٣٠)، ومسلم واللفظ له، كتاب الأيمان، باب إطعام المملوك مما يأكل، حديث رقم (١٦٦١).

وكان ينهاهم عن الفخر بالأحساب والأنساب حتى لا يتفاضل المسلمون بشيء غير التقوى لله تعالى، فعن أبي هريرة ﷺ أنَّ النبي ﷺ قال: «**لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ يَفْتَخِرُونَ بِآبَائِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا إِنَّمَا هُمْ فَحْمُ جَهَنَّمَ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللهِ مِنَ الْجُعَلِ الَّذِي يُدَهْدِهُ[١] الْخِرَاءَ بِأَنْفِهِ، إِنَّ اللهَ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ[٢] الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالآبَاءِ، إِنَّمَا هُوَ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، النَّاسُ كُلُّهُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ تُرَابٍ**»[٣]. وفي حجة الوداع أعلن ﷺ إعلانًا عامًّا إزالة الفوارق بكل أنواعها بين المسلمين إلا بالتقوى، فقال: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى**»[٤].

تفعيل مبدأ الشورى وإشراك الصحابة ﷺ في اتخاذ القرارات:

الشورى: هي التشاور في الأمر الذي يطرأ[٥]. وقد أمر الله تعالى بها نبيه ﷺ فقال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٥٩]، وجعل المشورة في الأمور من صفات المؤمنين الصادقين فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى:٣٨]؛ لذا كان النبي ﷺ دائم المشورة لأصحابه فيما يعرض من الأمور مع عدم حاجته لهم؛ لأنَّه مؤيد بالوحي؛ ولكن تأديب لهم وإشراك في اتخاذ القرار وتحمل المسؤولية المترتبة عليه، ومن ذلك أنَّه ﷺ شاورهم في بدر لمَّا فاتت العير وأقبل النفير؛ ليسمع رأي الأنصار خاصة، إذ خرجوا معه لأجل

---

(١) **يدهده أي:** يدحرج. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (ص٣١٧).

(٢) **عبية الجاهلية:** أي كبرها. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٥٨٧).

(٣) أخرجه الترمذي، كتاب: أبواب المناقب، باب: في فضل الشام واليمن، حديث رقم (٣٩٥٥)، وحسنه الألباني.

(٤) أخرجه أحمد في المسند، حديث رقم (٢٣٤٨٩)، وحسن إسناده الأرناؤوط.

(٥) ينظر: المعجم الوسيط (١/ ٤٩٩).

العير فقط، ولم يتوقعوا القتال، ولم تكن من بيعتهم له ﷺ القتال معه خارج المدينة؛ لذا استشارهم، فكان رأيهم على ما يحبه منهم[١].

ولـمَّا علم النبي ﷺ في السنة الثالثة من الهجرة بخروج أبي سفيان بالجيش من مكة قاصدا المدينة استشار أصحابه بين الخروج لملاقاتهم خارج المدينة أو التحصن بداخلها، فكان رأي الأكثر الخروج، فخرج بهم إلى أحد[٢]. واستشارهم ﷺ أيضًا في شأن الأحزاب؛ فأُشير عليه بحفر خندقٍ يحول بين العدو والمدينة، فأمر بحفره، وبادر المسلمون إليه، وعمل ﷺ بنفسه فيه[٣].

ولما دنا من مكة معتمرًا زمن الحديبية جاءته الأخبار باستعداد قريش للحرب وصدِّه عن البيت؛ فاستشار أصحابه في الميل عليهم وسبي النساء والذرية، فأشار أبو بكر بأن يخرج عامدًا للبيت فمن صدنا عنه قاتلناه، وأراد الله صلح الحديبية وتأجيل العمرة إلى العام المقبل[٤].

بل إنَّه ﷺ كان يستشير أصحابه -أو بعضهم- في أموره الخاصة داخل بيته، كما استشار علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد ﷺ في عائشة حين الإفك فقالا: ما علمنا عليها إلا خيرًا. ولما نزلت براءتها استشار الصحابة في من قذفها وتكلم في عرضها فقال: «**أَمَّا بَعْدُ، أَشِيرُوا عَلَيَّ فِي أُنَاسٍ أَبَنُوا**[٥] **أَهْلِي، وَايْمُ اللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي مِنْ سُوءٍ قَطُّ،**

(١) أخرجه مسلم، كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة بدر، حديث رقم (١٧٧٩).
(٢) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٦٣).
(٣) ينظر: زاد المعاد (٣ / ٢٤١).
(٤) أخرجه البخاري، كتاب: المغازي، باب: غزوة الحديبية، حديث رقم (٤١٧٨).
(٥) **الأَبْنُ**: التهمة، والمراد: اتَّهموها. ينظر: لسان العرب (١/ ٣).

وَأَبْنُوهُمْ، بِمَنْ، وَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَطُّ، وَلَا دَخَلَ بَيْتِي قَطُّ إِلَّا وَأَنَا حَاضِرٌ، وَلَا غِبْتُ فِي سَفَرٍ إِلَّا غَابَ مَعِي»[(١)].

وهكذا نجد النبي ﷺ دائم المشاورة لأصحابه في القرارات التي تحتاج إلى ثبات؛ لتكون المسؤولية على الجميع، فكان الصحابة ﷺ يشاركونه الرأي ويثبتون معه بعد اتخاذ القرار ثبات الرواسي.

الإصلاح بين المؤمنين إبقاءً للألفة والمحبة:

لقد جعل الله تعالى الإصلاح بين الناس من خير عمل الإنسان فقال: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٤]، وقد كان الصحابة ﷺ يختصمون، والنبي ﷺ يسلك معهم أحد مسلكين: الأول: الإصلاح بينهم وإزالة الكدر من النفوس، والثاني: الحكم والقضاء وقطع النزاع، وكان يقدِّم الإصلاح ما أمكنه ذلك[(٢)]، فقد بلغه أنَّ حيين من بني عمرو بن عوف بقباء اختصموا حتى تراموا بالحجارة، فانطلق إليهم فأصلح بينهم[(٣)]. ولما اختصم رجال من المسلمين ووقعت فيهم جراحات أصلح بينهم ﷺ على غنمٍ قطعًا للنزاع وإبقاء للألفة والمحبة[(٤)].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب: التفسير، باب: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾، حديث رقم (٤٧٥٧)، ومسلم، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك، حديث رقم (٢٧٧٠).

(٢) الفرق بين القضاء والإصلاح أنَّ القضاء يكون فيه ترافع بين طرفين، وأما في الإصلاح لا يلزم ذلك، وأيضا فإنَّ حكم القاضي يكون ملزما ونافذا، أمَّا رأي المصلح فليس بملزم.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب: الصلح، باب: قول الإمام لأصحابه اذهبوا بنا نصلح، حديث رقم (٢٦٩٣).

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير، حديث رقم (٦٣٨٩)، وأخرجه أبو داود، باب: كراهية أن يقول عليك السلام، حديث رقم (٥٢٠٩) وصححه الألباني.

المقصد الخامس: بناء الأخلاق الفاضلة والقيم العالية:

لقد بيَّن النبي ﷺ أنَّ إصلاح الأخلاق أصل من أصول دعوته التي بعثه الله تعالى لأجلها فقال: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ**»(١). فكان ذلك حاضرًا في سيرته ﷺ ودعوته سلمًا وحربًا، **وبيان ذلك على النحو التالي:**

أولًا: بناء الأخلاق في حال السلم:

لقد أنزل الله تعالى آيات كثيرة في تقرير مبادئ الأخلاق والحث على أصول الفضائل والتحذير من مساوئها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ [النحل:٩٠، ٩١]، ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:١٥٢]، ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [هود:٨٥].

وعن أبي ذر ﷺ قال: قلت يا رسول الله، أيُّ الأعمال أفضل؟ قال: «**الْإِيمَانُ بِاللهِ وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ**»، قال: قلت: أيُّ الرقاب أفضل؟ قال: «**أَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا وَأَكْثَرُهَا ثَمَنًا**»، قال: قلت: فإن لم أفعل؟ قال: «**تُعِينُ صَانِعًا أَوْ تَصْنَعُ لِأَخْرَقَ**»، قال: قلت: يا رسول الله، أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل؟ قال: «**تَكُفُّ شَرَّكَ عَنِ النَّاسِ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ**»(٢). وعن عبادة بن الصامت ﷺ أنَّ النبي ﷺ قال: «**اضْمَنُوا**

(١) أخرجه أحمد في المسند، حديث رقم (٨٩٥٢)، وصححه الأرناؤوط.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب: العتق، باب: أي الرقاب أفضل؟ حديث رقم (٢٥١٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، حديث رقم (٨٤).

لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنْ لَكُمُ الْجَنَّةَ: اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ، وَأَدُّوا إِذَا اؤْتُمِنْتُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ، وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ»(١).

وعظَّم الرسول ﷺ في خطبته في الحج الاعتداء على الدماء والأموال فقال: «**إِنَّ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ، وَأَعْرَاضَكُمْ، بَيْنَكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا**»(٢).

وحذَّر ﷺ أصحابه من الجلوس في الطرقات، فلما راجعوه بشأنها قال: «**فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا المَجَالِسَ، فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهَا**»، قالوا: وما حقه ؟ قال: «**غَضُّ البَصَرِ، وَكَفُّ الأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهْيٌ عَنِ المُنْكَرِ**»(٣).

فهذه النصوص وأشباهها تكشف مدى عنايته ﷺ بتأسيس الأخلاق وتهذيبها وتصحيح مسارها؛ لتكون قربة وطاعة يتقرب بها المؤمنون لربهم ﷻ.

ثانيًا: بناء الأخلاق في حال الحرب:

لقد أرسى النبي ﷺ آداب الغزو والقتال في سبيل الله بما يخالف فيه الأعراف الحربية السابقة، ويكفي في هذا المقام ذكر وصيته التي تتكرر دائما لأمراء البعوث والسرايا، فعن بريدة بن الحصيب رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا أمَّر أميرا على جيش أو سرية أوصاه في

---

(١) أخرجه أحمد في المسند، حديث رقم (٢٢٧٥٧)، وحسَّنه الأرناؤوط.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب: العلم، باب: قول النبي ﷺ: رب مبلغ أوعى من سامع، حديث رقم (٦٧)، ومسلم، كتاب: القسامة، باب: تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، حديث رقم (١٦٧٩).

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب: المظالم، باب: أفنية الدور والجلوس فيها والجلوس على الصعدات، حديث رقم (٢٤٦٥)، ومسلم، كتاب: اللباس والزينة، باب: النهي عن الجلوس في الطرقات، حديث رقم (٢١٢١).

خاصته بتقوى الله، وأوصاه في من معه من المسلمين خيرا، ثم قال: «**اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا وَلَا تَغْدِرُوا وَلَا تَمْثُلُوا وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ -أَوْ: خِلَالٍ- فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الْجِزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَلَا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللهِ فِيهِمْ أَمْ لَا**»[(١)].

تلك وصيته ﷺ بمن يحاربونه من الكفار، أمَّا من كان بينهم وبينه عهد وميثاق فأوجب الوفاء لهم به امتثالًا لأمر الله تعالى حين أمره بذلك في صدر سورة براءة حيث قال: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة:٤]. بل تجاوز ذلك إلى

(١) أخرجه مسلم، كتاب: الجهاد والسير، باب: تأمير الإمام الأمراء على البعوث، حديث رقم (١٧٣١).

إنذار من تُخشى منه الخيانة بانقضاء عهده؛ ليكون على بينة من أمره حيث قال سبحانه: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال:٥٨].

ولما رأى رسول الله ﷺ في إحدى غزواته الناس مجتمعين على شيء بعث رجلًا فقال: «**انْظُرْ عَلَامَ اجْتَمَعَ هَؤُلَاءِ؟**» فجاء فقال: على امرأة قتيل. فقال: «**مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُقَاتِلَ!**»، ثم بعث رجلًا إلى خالد بن الوليد رضي الله عنه وكان على المقدمة فقال: «**قُلْ لِخَالِدٍ، لَا يَقْتُلَنَّ امْرَأَةً وَلَا عَسِيفًا**»(١).

ومن هنا ندرك أنَّ الأخلاق في الإسلام شأنها عظيم، إذ هي شطر الشريعة(٢)، ولها ارتباط بكثير من الأحكام، وبها تبرز محاسن الإسلام للعالمين.

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الجهاد، باب في قتل النساء، حديث رقم (٢٦٦٩)، وقال الألباني عنه: حسن صحيح.

(٢) يتكون الإسلام من: عقيدة وشريعة، والشريعة: أحكام وأخلاق.

المطلب الثاني

التطبيقات المعاصرة للمقاصد الدعوية المتعلقة بأتباع الدعوة

- الأتباع المؤمنون هم رأس مال الدعوة وعماد قوتها، لذا لابد من تأهيلهم: التأهيل الإيماني بالوعظ والترغيب والترهيب، والتأهيل العلمي: بتعليمهم الكتاب والسنة على فهم سلف الأمة، والتأهيل السلوكي: بتزكية نفوسهم بالتوحيد ليتخلصوا من أوضار الخرافة والتعلق بغير الله، وبالأخلاق الفاضلة ليترفعوا عن مساوئها؛ حتى يكونوا أعضاء فاعلين يحملون هم الإصلاح في المجتمعات.

- لزوم العناية بالبارزين من المقبلين على الدعوة المنضوين تحت لوائها عناية إيمانية وعلمية تهدف إلى فحص قدراتهم ومعرفة إمكاناتهم التي يمكن أن يخدموا بها دين الله ويسهموا بالدعوة إليه من خلالها، مع الحرص الشديد على الاستفادة من الجميع ما أمكن ذلك، كلٌّ بحسب قدرته وجهده.

- السعي الدؤوب لتقوية أتباع الدعوة بكل ما يطوِّر ذواتهم ويرفع كفاءتهم العلمية والمهنية للاستفادة المثلى من مواهبهم وإبداعاتهم فيما يخدم الدعوة وينفع المدعوين.

- تدريب الأتباع على الدعوة إلى الله والمشاركة الفاعلة في هداية الناس كلٌّ بحسب استطاعته وعلى قدر جهده وقدرته، ويُسلك في ذلك مسلك التدرج، فيُبدأ بالمشاركات اليسيرة ثم يُترقى بهم إلى ماهو أعلى منها، بحسب استعداد الأتباع وما وهبهم الله من قدرات.

- الحرص على عدم الزج بالأتباع في مواجهات مع الخصوم لم يُحسب حسابها ولم تُقدَّر عواقبها لما في ذلك من الفتنة لهم، وربما تقطعهم عن الاستمرار في الدعوة إلى الله.

- تقوية رابطة الأخوة الإيمانية، وتدريب المؤمنين على تعظيم الأخوة التي جعلها الله بين أوليائه، والتضحية من أجلها وتقديم الغالي النفيس رجاء بقائها واستمرارها.

- العناية بالعلم الشرعي وتعليم الناس بحسب قدرتهم واستطاعتهم، مع فتح المدارس والكليات النظامية التي تُعلِّم العلوم الشرعية والعلوم الدنيوية؛ ليستطيع أبناء المسلمين المشاركة الفاعلة في أوطانهم.

- رفع المستوى المهني لدى المدعوين، وحثهم على تعلُّم المهن والاكتساب منها، ومما يساعد على ذلك إنشاء المعاهد المهنية لتعليم أبناء المسلمين المهن الدنيوية؛ ليكفوا أنفسهم ويستغنوا بها عن الحاجة للناس.

- إتاحة الفرص لالتقاء الناس كبارًا وصغارًا بالعلماء وطلبة العلم والاستفادة منهم وسؤالهم وطلب المشورة منهم والصدور عن رأيهم، وإزالة الحواجز التي تفصلهم عن علمائهم؛ ليكون أثر العلماء والدعاة وطلبة العلم في الناس أكبر، مما سيُسهم في بناء المجتمع وتقويته من الداخل.

- إشاعة الاخلاق الاسلامية والحث عليها، كالكرم والصدق والسماحة والإيثار ...الخ، والحث على امتثالها وتشجيع الناس على التحلي بها، وإبراز النماذج المتميزة فيها؛ ليكونوا قدوة للأجيال، ولتكون تلك الأخلاق سببًا في تعريف غير المسلمين بالإسلام ودعوتهم إليه.

- نشر التفاؤل الدائم في النفوس المؤمنة بأنَّ الحق يعلو ولا يعلى، وأنَّ العاقبة للمتقين.

المبحث الرابع

المقاصد الدعوية المتعلقة بالمخالفين للدعوة وتطبيقاتها المعاصرة

يشمل هذا المبحث المقاصد الدعوية المتعلقة بالمخالفين للدعوة، وجوانب الاقتداء بها في العصر الحاضر، وبيانها في المطلبين الآتيين:

المطلب الأول

المقاصد الدعوية المتعلقة بالمخالفين للدعوة

ما من دعوة إلا وينقسم الناس أمامها إلى: موافق ومخالف، ومحب وكاره، والدعوة النبوية كذلك، فقد انقسم الناس حولها إلى موافقين مؤمنين، ومخالفين كافرين، وكان النبي ﷺ يراعي في دعوته لهؤلاء جميعًا مقاصد من أبرزها مايلي:

المقصد الأول: الإيمان وإقامة الحجة:

إنَّ من أبرز ما كلَّف الله تعالى به نبيه ﷺ إبلاغ الناس الدعوة وإقامة حجته على العالمين، قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٦٥]، وقال أيضًا: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [المائدة:٩٢].

وقد قام النبي ﷺ بمهمة البلاغ وإقامة الحجة على المخالفين، ومن ذلك أنه كان

يبدأ الناس بالدعوة إلى الإيمان ويتلو عليهم القرآن، فقد قال لأبي بكر أول البعثة: «**إِنِّي رَسُولُ اللهِ وَنَبِيُّهُ، بَعَثَنِي لِأُبَلِّغَ رِسَالَتَهُ، وَأَدْعُوكَ إِلَى اللهِ بِالْحَقِّ، فو الله إِنَّهُ لَلْحَقُّ، أَدْعُوكَ يَا أَبَا بَكْرٍ إِلَى اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا تَعْبُدْ غَيْرَهُ، وَالْمُوَالَاةَ عَلَى طَاعَتِهِ. وقرأ عليه القرآن، فلم يعز ولم ينكر؛ بل أسلم، وكفر بالأصنام وخلع الأنداد وأقرَّ بحق الإسلام، ثم رجع إلى أهله وقد آمن وصدَّق**»[(١)]. وتلاه أيضًا على الوليد بن المغيرة المخزومي، فكأنه رقّ له، حتى قال في وصفه: والله إنَّ لقوله لحلاوة، وإنَّه ليحطم ما تحته، وإنَّه ليعلو ولا يعلى[(٢)].

ولما قدم الطفيل بن عمرو الدوسي مكة -وكان شاعرًا لبيبًا- قالت له قريش: احذر محمدا فإنَّ قوله كالسحر يفرق بين المرء وزوجه، إلا أنَّه لم يطعهم، بل أتاه في بيته وقال: يا محمد، اعرض أمرك. فعرض عليه النبي ﷺ الإسلام وتلا عليه القرآن، فأسلم[(٣)].

ولقي النبي ﷺ في مكة سويد بن صامت -رجلًا من أهل يثرب- حاجًّا أو معتمرًا فتصدى له فدعاه إلى الله وإلى الإسلام، فقال له سويد: فلعل الذي معك مثل الذي معي؟ قال له رسول الله ﷺ: «**وَمَا الَّذِي مَعَكَ؟**» قال: حكمة لقمان. فقال له رسول الله ﷺ اعرضها عليَّ. فعرضها عليه، فقال: «**إِنَّ هَذَا الْكَلَامَ حَسَنٌ، وَالَّذِي مَعِيَ أَفْضَلُ مِنْهُ: قُرْآنٌ أَنْزَلَهُ اللهُ ﷻ عليَّ هُوَ هُدًى وَنُور**»، فتلا عليه القرآن ودعاه إلى الإسلام فلم يبعد منه، وقال: إنَّ هذا القول حسن. ثم انصرف عنه، فقدم المدينة على قومه فلم يلبث أن قتلته الخزرج قبل بعاث، فإنَّه كان رجال من قومه ليقولون: إنَّا لنراه قد قُتل وهو مسلم[(٤)].

---

(١) ينظر: دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ١٦٤)، وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية (ص١٥٨).
(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير (٢٤ / ٢٤).
(٣) أعلام النبوة للماوردي (ص١٤٢).
(٤) ينظر: دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٤١٩).

ولما أتى عتبة بن ربيعة بن عبد شمسٍ النبيَّ ﷺ يلومه على دعوته وموقفه من قومه قرأ عليه صدر سورة فصلت[١].

واستمر الحال على هذا بعد الهجرة، وهو أمر ظاهر في سيرته، حتى في الغزوات، فقد أعطى الراية في خيبر لعلي بن أبي طالب ﷺ، فقال علي: نقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال ﷺ: «**عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ، فَوَاللهِ لأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ**»[٢].

ولما أَمِنَ النبي ﷺ خطر قريش بعد صلح الحديبية كتب كتبًا وبعث بها رسلًا من أصحابه إلى الملوك والأمراء في زمنه، ومن أشهرها كتابه ﷺ إلى ملك الروم يدعوه إلى الإسلام، فجاء فيه قوله ﷺ: «**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ: سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلَامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ**[٣]»[٤].

وكذلك كتب إلى كسرى ملك فارس، والنجاشي ملك الحبشة، والمقوقس ملك مصر، والمنذر بن ساوى ملك البحرين، وابني الجيلندي أميري عمان، وصاحب اليمامة،

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، باب قراءة النبي ﷺ، حديث رقم (٣٠٠٢)، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام، حديث رقم (٢٩٤٢)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب ﷺ، حديث رقم (٢٤٠٦).

(٣) أي: الضعفاء والأتباع منهم. ينظر: غريب الحديث للخطابي (١/ ٤٩٩).

(٤) متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب بدء الوحي، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، حديث رقم (٧)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، حديث رقم (١٧٧٣).

والحارث بن أبي شمر ملك الغساسنة يدعوهم فيها إلى الإيمان بالله تعالى[١].

هـذا بالإضافة إلى الجهد المتواصل في دعوة النـاس للإيمان بالله ونبذ كل طاغوت يعبد من دونه، والذي اسـتمر يبذله ﷺ ثلاثًا وعشرين سنة، لقي بسببه أصناف المتاعب وصنوف الأذى في ذات الله؛ حتى أنار الله به قلوب المؤمنين وأقام الحجة على الكافرين.

المقصد الثاني: مداراة المخالفين وتأليف قلوبهم:

التأليف: استمالة القلوب بالملاطفة والعطاء والإحسان[٢].

والمداراة: الملاينة والملاطفة، فيقال: دريت الصيد وأدريته: ختلته، ومنه الدراية: وهو العلم في تكلف وحيلة[٣].

وقد استعمل النبي ﷺ أنواعًا من أساليب التأليف والمداراة للناس، منها: الإنصات وحسن الاستماع للمخالفين والأدب عند محاورتهم، ومن ذلك أنَّ عتبة بن ربيعة قال لقومه ذات يوم ورسول الله ﷺ في المسجد: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى هذا فأكلمه فأعرض عليه أمورا؛ لعله أن يقبل منها بعضها ويكفّ عنا؟ قالوا: بلى يا أبا الوليد. فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي، إنَّك منا حيث قد علمت من السِّطَة في العشيرة والمكان في النسب، وإنَّك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرَّقت جماعتهم، وسفَّهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفَّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني حتى أعرض عليك أمورا تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها.

فقال له رسول الله ﷺ: «**يا أبا الوليد، أسمع**».

---

(١) ينظر: زاد المعاد (٣/ ٦٠٠-٦٠٨).

(٢) ينظر: لسان العرب (٩/ ٩).

(٣) ينظر: التوقيف على مهمات التعاريف (ص٦٤٥).

قال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد به شرفًا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به مُلكًا ملَّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا تراه لا تستطيع ردَّه عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنَّه ربما غلب التابع على الرجل حتى يتداوى منه. حتى إذا فرغ عتبة قال رسول الله ﷺ: «**أفرغت يا أبا الوليد؟**» قال: نعم. قال: «**فاسمع مني**». قال: أفعل. فقال رسول الله ﷺ: «**بسم الله الرحمن الرحيم:** ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [فصلت:١-٣]، حتى بلغ: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾ [فصلت:١٣]»[(١)].

فتأمل أدبه ﷺ إذ أنصت للرجل حتى أتم كلامه، ثم خاطبه بكنيته، ثم عرض الحقَّ عليه بعد استئذانه في ذلك.

وكذلك فعل مع عمه حين خاطبه متأدبًا معه، وناداه بقول: ياعم، إظهارًا للتقدير والاحترام مع أنَّه يخالفه في العقيدة والدين، ولم تنقل لنا روايات السيرة أنَّ النبي ﷺ أغلظ على عمِّه أو أغضبه ولو مرة واحدة؛ بل كان شديد التلطف معه حتى حين يخالفه، مع أنَّ النبي ﷺ لم يكن يطيع أبا طالب في وقف الدعوة أو الكفّ عن التصريح ببطلان عبادة الأوثان والأصنام؛ بل كان ثابتا على دعوته متلطفًا مع عمِّه غاية التلطف إلى أن مات، ولما سأل العباس بن عبد المطلب رسول الله ﷺ: (مَا أَغْنَيْتَ عَنْ عَمِّكَ، فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ؟ قَالَ: «**هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**»)[(٢)].

(١) ينظر: السيرة النبوية لابن كثير (١/ ٢٠١، ٥٠٢)، والخصائص الكبرى للسيوطي (١/ ١٨٩).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري واللفظ له، كتاب: مناقب الأنصار، باب: قصة أبي طالب، حديث رقم (٣٨٨٣)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب، حديث رقم (٢٠٩).

وكان يحفظ الصنيع الحسن من أحدهم ولا ينساه وإن تطاول الزمان، فقد حفظ للمطعم بن عدي صنيعه لَمَّا أدخله مكة في جواره عند عودته من الطائف، حتى قال في أسارى بدر: «**لَوْ كَانَ المُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا، ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلَاءِ النَّتْنَى لَتَرَكْتُهُمْ لَـهُ**»(١). وذلك أنَّ شكر الناس فيما قدموه للدعوة خُلق من أَجلِّ أخلاق الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، قال ﷺ: «**مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللهَ**»(٢). ولكن ينبغي التنبيه على أنَّ شكر أصحاب الفضل مشروط بأن يكون فيما يسوغ شرعًا، وداخل تحت الاستطاعة والقدرة.

وكان ﷺ يتألف قلوب المدعوين ليرغبهم في الإسلام والثبات عليه -حتى بعد العزة والظهور- وكان أكثر ما يتألَّفهم به المال، ولم يكن هذا العطاء دليل محبة أو علو منزلة للمعطى؛ بل كان ﷺ يقول: «**إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ وَأَدَعُ الرَّجُلَ، وَالَّذِي أَدَعُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الَّذِي أُعْطِي، وَلَكِنْ أُعْطِي أَقْوَامًا لِمَا أَرَى فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الجَزَعِ وَالهَلَعِ، وَأَكِلُ أَقْوَامًا إِلَى مَا جَعَلَ اللهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الغِنَى وَالخَيْرِ**»(٣).

ولما بعث عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه بذُهَيْبة(٤) من اليمن إلى النبي ﷺ قسمها بين أربعة من أمراء الأعراب: الأقرع بن حابس المجاشعي، وعيينة بن حصن الفزاري، وزيد

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: فرض الخمس، باب: ما منَّ النبي ﷺ على الأسارى من غير أن يخمس، حديث رقم (٣١٣٩).

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب: البر والصلة، باب: الشكر لمن أحسن إليك، حديث رقم (١٩٥٤)، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب: الجمعة، باب: من قال في الخطبة بعد الثناء: أما بعد، حديث رقم (٩٢٣).

(٤) **الذُهيبة**: تصغير ذهب، ويطلق على القطعة الصغيرة منه. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (ص٣٣٢).

الطائي، وعلقمة بن علاثة العامري، فغضب بعض المؤمنين من قريش والأنصار وقالوا: يُعطي صناديد أهل نجد ويدعنا. فقال معتذرا ومبينا سبب العطاء: «**إِنَّمَا أَتَأَلَّفُهُمْ**»(١).

وينبغي أن يُعلم أنَّ تأليف القلوب ومدارة المخالفين يُكسب الدعوة واحدا من ثلاثة أمور: أن يدخلوا في الإسلام ويلتحقوا بركب الدعوة، وهذا غاية المنى وأعظم المقاصد. أو استمالتهم للوقوف مع الدعوة والدفاع عنها وتسهيل أمورها دون أن يستجيبوا لها كما فعل أبو طالب. أو يلتزموا الحياد فلا يقفوا في وجهها ويعارضوها، وهذه كلها مكاسب تنتفع بها الدعوة إلى الله تعالى. قال ابن القيم رحمه الله: «ليس للقلب أنفع من معاملة الناس باللطف، فإنَّ معاملة الناس بذلك: إما أجنبي فتكسب مودته ومحبته وإما صاحب وحبيب فتستديم صحبته ومودته، وإمَّا عدو ومبغض فتطفىء بلطفك جمرته وتستكفي شرَّه ويكون احتمالك لمضض لطفك به دون احتمالك لضرر ما ينالك من الغلظة عليه والعنف به»(٢).

المقصد الثالث: كشف الشبهات ورفع الجهل:

إنَّ كثيرًا من المخالفين لدعوة الرسل تكون مخالفتهم بسبب التصورات الخاطئة عن الدعوة والدعاة إلى الله تعالى، فما من رسول إلا وقد وجد عند من يدعوهم شبهات حول الأصول الإيمانية أو غيرها، ومن أولئك أهل مكة زمن البعثة، فلقد ذكر الله تعالى جملة من شبهاتهم وتصوراتهم الخاطئة، وفي كل مرة ينزل بيان الحق وكشف الشبهة إمَّا بقرآن يتلى أو بوحي يوحى للنبي ﷺ، وإنَّ من أبرز تلك الشبهات التي كانت عند الناس: اعتقادهم أنَّ النبوة مقام رفيع لا يمكن أن يناله بشر يأكل الطعام مثلهم، ويسير

(١) أخرجه البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾، حديث رقم (٣٣٤٤).
(٢) مدارج السالكين (٢/ ٥١١).

في أسواقهم، بلا تكلف ولا ترفع كما يفعل الملوك وأهل الجاه والسلطان، لذا خالفوا النبي ﷺ وأنكروا نبوته، فقال الله تعالى عن ذلك: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٧-٩]، فأخبرهم القرآن أنَّ جميع الأنبياء قبله إنما كانوا على هذا الحال من التواضع؛ لأنَّ مهمتهم إبلاغ رسالة الله إلى كل صغير وكبير، وضعيف وقوي، وشريف ووضيع، وحر وعبد، فلو لبث في الترف والخدم والحشم والحرس والمواكب مثل الملوك لم يستطع الوصول إليه ضعفاء الناس وصغارهم حتى يستفيدوا منه، وهم جمهور البشر، ولفاتت مصلحة الرسالة فلم تعد لها فائدة تذكر، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان:٢٠].

وكذلك أنكروا نبوته ﷺ لما هو فيه من فقر ويتم، إذ كيف لا يؤتى النبوة الكبراء والأغنياء وتعطى ليتيم فقير، فقال الله عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١]. فردَّ الله تعالى عليهم بأن الرسالة اصطفاء واختيار منه يؤتيها من يعلم بأنَّه الأقدر على حملها وتبليغها، فقال: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤]، وقال: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف:٣٢].

ومن شبههم أيضًا: إنكار البعث والمعاد والحساب؛ لاستبعادهم وقوع ذلك، قال الله تعالى حاكيًا ذلك عنهم ورادًّا عليه: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾

أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾ [الصافات:١٦-١٩]، وقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يس:٧٧-٨١].

ومنها: اعتقاد جواز السجود لأهل الفضل والمكانة، ومن ذلك أنَّ معاذ بن جبل ﷺ زار الشام ورأى تعظيمهم لكبرائهم وسجودهم لهم فلما قدم المدينة سجد للنبي ﷺ. فقال: «**مَا هَذَا يَا مُعَاذُ؟**». قال: أتيت الشام فوافقتهم يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم، فوددت في نفسي أن نفعل ذلك بك. فقال رسول الله ﷺ: «**فَلَا تَفْعَلُوا، فَإِنِّي لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِغَيْرِ اللهِ، لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا تُؤَدِّي الْمَرْأَةُ حَقَّ رَبِّهَا حَتَّى تُؤَدِّيَ حَقَّ زَوْجِهَا، وَلَوْ سَأَلَهَا نَفْسَهَا وَهِيَ عَلَى قَتَبٍ لَمْ تَمْنَعْهُ**»[(١)].

وإذا تتبعنا كل شبهة ترد على الناس وجدناها لم تُهمَل؛ بل تأخذ حظها من البيان والكشف والإيضاح؛ لإقامة الحجة وقطع المحجة، مما يدل على أنَّ بيان شبه المخالفين من مقاصد الدعوة إلى الله، فكم من ضال تنكب الصراط وأعرض عن الحق بسبب شبهة استقرت في فؤاده لم تجد كشفًا ولا بيانًا[(٢)].

---

(١) أخرجه ابن ماجه، كتاب: النكاح، باب: حقّ الزوج على المرأة، حديث رقم (١٨٥٣)، وقال الألباني: حسن صحيح.

(٢) ينظر: الرحيق المختوم (ص١٠٢، ١٠٥).

المطلب الثاني

التطبيقات المعاصرة للمقاصد الدعوية المتعلقة بالمخالفين

- مداراة المخالفين واللطف في معاملتهم والتودد إليهم بما يقربهم من الدعوة ويحبب الدعاة إليهم من غير تنازل عن المبادئ الشرعية.

- دعوة المخالفين لحضور المناسبات الاجتماعية المتنوعة والاطلاع على المناشط الخيرية والدعوية، وتقديم الهدايا لهم وتأليف قلوبهم رجاء إيمانهم، فإن لم يسلموا فليقفوا مع الدعوة ويساعدوها، فإن لم يحصل هذا ولا ذاك فلا أقل من إمساكهم عن إيذائها.

- الحوار حول قضايا الخلاف سواء عقيدية أو تشريعية وبيان حكم الإسلام فيها بكل وضوح.

- الإجابة على تساؤلات واستفهامات المخالفين عن الإله، والنبي ﷺ، والإسلام، والوحي...إلخ.

- زيارة المخالفين في منازلهم وأماكن وجودهم، والتعرُّف عليهم وإنشاء العلاقات الاجتماعية معهم؛ مما يكون سببًا في تقديم الإسلام لهم وتعريفهم به.

- تقديم العطاء المالي للمخالفين، والسماح لهم بالاستفادة من الخدمات الاجتماعية التي تقدمها الدعوة للناس، كالخدمات الطبية والرعاية الاجتماعية للفقراء والأيتام ونحو ذلك من وجوه النفع العام.

- تجنب الصدام مع المخالفين، والسعي إلى التعايش في جوٍّ من الأمن والوضوح؛ مع المحافظة على الثوابت الشرعية وعدم التنازل عنها.

- رفع دعاوي الحسبة على كل من يقدح في الدين وينال من شعائره أو شرائعه، والمطالبة بإقامة الحدود الشرعية على من تثبت عليه المخالفة الشرعية.

- الاستفادة من النقد الموجه للدعوة أو للقائمين عليها، ومحاولة اكتشاف الأخطاء الواقعة والسعي في إصلاحها، إذ الحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحق بها.

المبحث الخامس
المقاصد الدعوية المتعلقة
بمجتمع الدعوة وتطبيقاتها المعاصرة

يشمل هذا المبحث المقاصد الدعوية المتعلقة بمجتمع الدعوة وجوانب الاقتداء بها في العصر الحاضر، وبيانها في المطلبين الآتيين:

المطلب الأول
المقاصد الدعوية المتعلقة بمجتمع الدعوة

مجتمع الدعوة هو: كل مايحيط بها، سواء كان ماديًّا أو بشريًّا، إذ صلاح الإنسان واستقامته مرتبط -في الغالب- بمدى صلاح المجتمع من حوله، فينشط بنشاطه ويكسل بخموله وضعفه، لذا كان النبي ﷺ يبني المجتمع ويعمره ويصلحه؛ لتكون الصبغة العامة التي تعتليه صبغة الإيمان والتقوى والصلاح، فيكون ذلك معينًا لأفراده على طاعة ربهم وإصلاح أحوالهم.

والجدير بالذكر أنَّه لم يكن للدعوة النبوية مجتمعًا يخصها إلا بعد الهجرة للمدينة، لذا تأخرت مراعاة ذلك حال الدعوة المكية، وقد ظهرت لي عناية النبي ﷺ بالمجتمع الإسلامي من خلال المقاصد الآتية:

المقصد الأول: الوقاية من الانحراف:

كان المجتمع المدني -وكذلك سائر جزيرة العرب- قد انحرف عن منهج الله إلى الشرك به وعبادة الأوثان من دونه، ونشأت ألوان من الانحرافات في العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات وغيرها، فكان النبي ﷺ يولي المحافظة على نقاء المجتمع المسلم وصفائه عناية كبيرة، ومما يدلُّ على ذلك:

أولًا: تقرير الأحكام والأمر بها:

إنَّ بيان الدين للناس، وإيضاح ما يحبه الله تعالى ويرضاه منهم وما يبغضه ويكرهه لهم أعظم السبل لحماية المجتمع؛ لذا كانت مهمة النبي ﷺ البلاغ عن الله دينَه وشرعَه، فإذا تمسك به الناس أمنوا وسلم لهم دينهم ودنياهم، قال الله تعالى في صدر سورة الأعراف مبينًا غاية نزول القرآن، آمرًا باتباعه، مخبرًا بأنَّ الحساب يوم القيامة سيكون عن مدى الالتزام به وتطبيقه: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف:٢-٩].

ثانيًا: التنفير من الانحراف والتحذير منه قبل وقوعه:

كان النبي ﷺ يحذِّر من أفعال شنيعة ومخالفات متوقعة، ويُقدِّم التوجيه النبوي المناسب للتعامل مع كل ما يطرأ على المجتمع من متغيرات، ومن ذلك التحذير الدائم

من الانشـــغال بالدنيا عن الآخرة: ففي الصحيحين أنَّ رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجـــراح إلى البحرين يأتي بجزيتها، فقدم بمالٍ كثير، فســـمع الناس بقدومه فوافوا صلاة الصبح مع رســـول الله ﷺ، فلما انصرف تعرضوا له، فتبســـم رسول الله ﷺ حين رآهم وقال: «**أَظُنُّكُمْ قَدْ سَـمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدْ جَاءَ بِشَـيْءٍ؟**» قالوا: أجل يا رسول الله. قال: «**فَأَبْشِـرُوا وَأَمِّلُـوا مَا يَسُـرُّكُمْ، فَـوَاللهِ لَا الفَقْرَ أَخْشَـى عَلَيْكُـمْ، وَلَكِنْ أَخْشَـى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَـطَ عَلَيْكُـمُ الدُّنْيَـا كَمَا بُسِـطَتْ عَلَى مَـنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُـوهَا كَمَا تَنَافَسُـوهَا وَتُهْلِكَكُـمْ كَمَـا أَهْلَكَتْهُم**»[(١)]. فهذا وإن كان فيه بشـــارة ووعـــد بالعطاء إلا أنه مضمَّنٌ تحذيرًا من الدنيـــا إذا فتحت عليهم، إذ انفتاحها مؤذن للتنافـــس فيها والالتهاء بها عن الدين وأمور الآخرة.

وكذلك حذَّر ﷺ من الإخلال بأوقات الصلوات المفروضة فقال لأبي ذر رضي الله عنه: «**يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدِي أُمَرَاءُ يُمِيتُونَ الصَّلَاةَ، فَصَلِّ الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا، فَإِنْ صَلَّيْتَ لِوَقْتِهَا كَانَتْ لَكَ نَافِلَةً، وَإِلَّا كُنْتَ قَدْ أَحْرَزْتَ صَلَاتَكَ**»[(٢)].

وأمر ﷺ الأنصار بالصبر على ما سيلقونه من جفاء الناس وتقصيرهم في حقهم: فقد روى أنس بن مالك الأنصاري رضي الله عنه أنَّ ناسًا من الأنصار قالوا للنبي ﷺ حين أفاء الله عليه أموال هوازن ما أفاء فطفق يعطي رجالًا من قريش المائة من الإبل: يغفر الله لرسول الله ﷺ، يعطي قريشًا ويدعنا وسيوفنا تقطر من دمائهم! قال أنس: فحُدِّث رسول الله ﷺ بمقالتهم، فأرسل إلى الأنصار فجمعهم في قبة من أدم، ولم يدع معهم

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري، باب: الجزية، حديث رقم (٣١٥٨)، ومسلم، كتاب: الزهد والرقائق، حديث رقم (٢٩٦١).

(٢) أخرجه مسلم، باب: كراهية تأخير الصلاة عن وقتها، حديث رقم (٦٤٨).

أحدًا غيرهم، فلمَّا اجتمعوا جاءهم رسول الله ﷺ فقال: «**مَا كَانَ حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكُمْ؟**» قال له فقهاؤهم: أمَّا ذووا آرائنا يا رسول الله فلم يقولوا شيئًا، وأما أناس منَّا حديثة أسنانهم فقالوا: يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطي قريشًا ويترك الأنصار وسيوفنا تقطر من دمائهم. فقال رسول الله ﷺ: «**إِنِّي أُعْطِي رِجَالًا حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ بِكُفْرٍ، أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالأَمْوَالِ، وَتَرْجِعُوا إِلَى رِحَالِكُمْ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَوَاللهِ مَا تَنْقَلِبُونَ بِهِ خَيْرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ**». قالوا: بلى يا رسول الله قد رضينا. فقال لهم: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً شَدِيدَةً، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوُا اللهَ وَرَسُولَهُ ﷺ عَلَى الحَوْضِ**»[(١)].

ثالثًا: مشروعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصيحة بين المسلمين:

التناصح بين الناس بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر صمام أمان للمجتمع من الانحراف، لذا جعلها النبي ﷺ من بنود البيعة التي كان يأخذها على كل من دخل الإسلام، قال جرير بن عبدالله البجلي رضي الله عنه: (بايعت النبي ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم)[(٢)]. وعن تميم الداري رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**»، قلنا لمن؟ قال: «**لِلهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**»[(٣)].

ولقد كان النبي ﷺ أعظم الناس نصحًا لأمته، فما ترك سبيل خير في الدنيا والآخرة إلا بينه لهم، ولا سبيل شرٍّ إلا حذَّرهم منه، وكذلك كان أصحابه رضي الله عنهم.

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري، باب: ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس، حديث رقم (٣١٤٧)، ومسلم، باب: إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام، رقم (١٠٥٩).

(٢) أخرجه مسلم، باب: بيان أنَّ الدين النصيحة، حديث رقم (٥٦).

(٣) المصدر نفسه، باب: بيان أنَّ الدين النصيحة، حديث رقم (٥٥).

المقصد الثاني: إزالة مظاهر الانحراف:

لم يكن النبي ﷺ يترك المنكرات معلنة؛ بل كان يغيرها بيده بناء على ما جعل الله بيده من النبوة والسلطان؛ ولتعلو المجتمع الصبغة الإسلامية، ومما يدل على ذلك: تكسيره الأصنام وتطهير المسجد الحرام من الأوثان عند فتح مكة، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: دخل النبي ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثمئة نصب، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء:٨١]، ﴿ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ [سبأ:٤٩][(١)].

وأمر ﷺ عمر بن الخطاب زمن الفتح أن يأتي الكعبة فيمحو كل صورة فيها، ولم يدخل النبي ﷺ البيت حتى محيت كل الصور التي كانت فيه[(٢)].

ولما فتح الله على نبيه ﷺ مكة وظهر أمر الإسلام وأظهره الله على أشد أعدائه خطرًا أرسل البعوث لهدم الأصنام التي كانت تعبدها العرب، فأرسل خالد ابن الوليد رضي الله عنه إلى وادي نخلة ليهدم العزى أعظم أصنام قريش وكنانة[(٣)]، وبعث عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى رهاط ليهدم سواعا صنم هذيل، وأرسل سعد بن زيد الأشهلي[(٤)] في عشرين فارسًا لهدم مناة صنم الأوس والخزرج وغسان وغيرهم، وأرسل علي بن أبي طالب رضي الله عنه لهدم الفُلْس، صنم قبيلة طيء[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاري، باب: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾، حديث رقم (٤٧٢٠).

(٢) أخرجه أحمد في المسند، حديث رقم (١٤٥٩٦)، وصححه الأرناؤوط.

(٣) أخرجه أبو يعلى في المسند، حديث رقم (٩٠٢) وصححه المحقق: حسين سليم أسد.

(٤) هو: سعد بن زيد بن مالك ابن عبد الأشهل الأنصاري، صحابي، شهد بيعة العقبة، ثم شهد بدرًا وأحدًا والخندق وغيرها مع رسول الله ﷺ. ينظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/ ٤٣٩).

(٥) ينظر: الرحيق المختوم (ص٤١٦، ٤٣١).

وأمر ﷺ بطمس صور ذوات الأرواح، وتسوية القبور المشرفة: فعن أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ **أن لا تدع تمثالًا إلا طمسته، ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته**[١].

ولا يخفى الأثر الإيجابي الكبير الذي يعود على المجتمع إذا أزيلت منه المنكرات الظاهرة.

المقصد الثالث: حفظ الأمن:

الأمن في المجتمع يشمل جانبين: الأمن الداخلي، والخارجي، وبيانهما في التالي:

أولًا: تحقيق الأمن الداخلي:

الأمن من أهم المطالب الإنسانية، وهو كذلك مهم جدًّا في مجتمع الدعوة، إذ به يستطيع الداعية أن يقوم بتزكية المدعوين والعناية بهم وترقيتهم في مراتب الكمال البشري شيئا فشيئا، ومن أبرز جوانب عناية النبي ﷺ بتحقيق الأمن داخل المجتمع المسلم أنَّه لما أستقر بالمدينة قام بعقد معاهدة بين الطرفين الكبيرين من المسلمين: أهلِ يثرب-وهم أهل الدار- والمسلمين من قريش ومن تبعهم من إخوانهم المؤمنين، أزاح بها ماكان بينهم من ثارات الجاهلية ونزاعاتها، وجعلهم على قلبٍ واحدٍ حميتهم للإسلام والقرآن، ونظَّم العلاقات بينهم، وكتب بذلك كتابًا جاء فيه: هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أنَّهم أمة واحدة من دون الناس، والمهاجرون من قريش على رِبْعَتِهم يتعاقلون بينهم، وهم يَفْدُون عَانِيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وكل قبيلة من الأنصار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وأنَّ المؤمنين

(١) أخرجه مسلم، باب: الأمر بتسوية القبر، حديث رقم (٩٦٩).

لا يتركون مُفْرَحًا[١] بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل، وأنَّ المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دَسِيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وأنَّ أيديهم عليه جميعًا، ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر، ولا ينصر كافرًا على مؤمن، وأنَّ ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وإنَّ من تبعنا من يهود فإنَّ له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وأنَّ سِلْم المؤمنين واحدة؛ لا يُسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم، وأنَّ المؤمنين يفيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله، وأنَّه لا يجير مشرك مالًا لقريش ولا نفسًا ولا يحول دونه على مؤمن، وأنَّه من اعتبط مؤمنًا قتلًا عن بينة فإنَّه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول، وأنَّ المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه، وأنَّه لا يحلُّ لمؤمن أن ينصر محدثًا ولا يؤويه، وأنَّه من نصره أو آواه فإنَّ عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صَرْف ولا عَدْل، وأنَّكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإنَّ مرده إلى الله ﷻ وإلى محمد ﷺ[٢].

وكان ﷺ يطبِّق القصاص، ويقيم الحدود الشرعية على المخالفين في المجتمع، فقد قتل اليهودي الذي رضَّ رأس الجارية بين حجرين[٣]، ورجم ماعزًا حدَّ الزنا[٤]، ورجم المرأة الغامدية لما اعترفت بين يديه بالزنا، بعدما أمهلها إلى وضعها ثم إلى فطام صبيها[٥]، وجلد حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش رضي الله عنهم لما قالوا بقول المنافقين في عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها[٦].

(١) **المفرح:** هو من أثقله الدين ولا يجد قضاءه. ينظر: المعجم الوسيط (٢/ ٦٧٩).

(٢) ينظر: الرحيق المختوم (ص ٢٠٨، ٢٠٩).

(٣) أخرجه البخاري، باب: ما يذكر في الأشخاص والخصومة بين المسلم واليهود، حديث رقم (٢٤١٣).

(٤) أخرجه البخاري، باب: هل يقول الإمام للمقر لعلك لمست أو غمزت، حديث رقم (٦٨٢٤).

(٥) أخرجه مسلم، باب: من اعترف على نفسه بالزنا، رقم (١٦٩٥).

(٦) أخرجه أبو يعلى في المسند، حديث رقم (٤٩٣٢)، وصححه إسناده المحقق: حسين سليم أسد.

ثانيًا: تحقيق الأمن من العدو الخارجي:

لقد قام النبي ﷺ بعدد من الأعمال التي من شأنها تحقيق الأمن من الأعداء المتربصين بالدعوة من خارجها، ومن أبرز تلك الأعمال ما يلي:

الأول: عقد المعاهدات للحفاظ على أمن المدينة:

إنَّ المدينة النبوية دار الإسلام وحاضرة المؤمنين ومأوى أفئدة المسلمين، فكل مؤمن بالله تعالى وبرسوله ﷺ تهفو نفسه إلى المدينة مهاجرًا لله واتباعًا لرسوله ﷺ، لذا كان لابد من إرساء الأمن في ربوعها، وهذا ما فعله النبي ﷺ، إذ عقد المعاهدات مع كثير من القبائل المحيطة بالمدينة والمشاركة له فيها من غير المسلمين، ومن ذلك عقد المعاهدة المشهورة مع اليهود القاطنين بالمدينة وأطرافها، وكانت هذه المعاهدة من أوائل أعماله بالمدينة، ونصت بنودها على أنَّ يهود بنى عوف أمَّة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم، وكذلك لغير بنى عوف من اليهود، وأنَّ على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأنَّ بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأنَّ بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وأنَّه لم يأثم امرؤ بحليفه، وأنَّ النصر للمظلوم، وأنَّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأنَّ يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وأنَّه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يُخاف فساده فإنَّ مردَّه إلى الله ﷻ وإلى محمد رسول الله، وأنَّه لا تُجار قريش ولا من نصرها، وأنَّ بينهم النصر على من دَهَم يثرب، وعلى كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم، وأنَّه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم[(١)].

وقد لخص ابن القيم رحمه الله: هذه المعاهدة وما آل إليه حال اليهود فيما بعد بقوله: «وادع رسول الله ﷺ من بالمدينة من اليهود، وكتب بينه وبينهم كتابا، وبادر حبرهم

(١) ينظر: الرحيق المختوم (ص٢١٢، ٢١٣).

وعالمهم عبد الله بن سلام فدخل في الإسلام وأبى عامتهم إلا الكفر، وكانوا ثلاث قبائل: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة، وحاربه الثلاثة، فمَنَّ على بني قينقاع وأجلى بني النضير وقتل بني قريظة وسبى ذريتهم، ونزلت سورة الحشر في بني النضير، وسورة الأحزاب في بني قريظة»[(١)].

وأما المعاهدة الأخرى فكانت مع القبائل العربية المحيطة بالمدينة، فقد عقد النبي ﷺ معاهدة مع قبيلة جهينة، وكانت مساكنها قريبة من المدينة، وعاهد أيضا سيِّد بني ضمرة[(٢)]، ونص تلك المعاهدة قوله: (هذا كتاب من محمد رسول الله لبني ضمره، فإنهَّم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وأنَّ لهم النصر على من رامهم إلا أن يحاربوا دين الله، ما بَلَّ بحرٌ صوفة، وأنَّ النبي إذا دعاهم لنصره أجابوه)، وكذلك عاهد بني مدلج -حلفاء بني ضمرة-[(٣)]، وقَبِلَ حِلف خزاعة بعد صلح الحديبية.

فكل تلك المعاهدات كانت تنص على الأمن بين المسلمين وحلفائهم، وأنهم يدٌ واحدة على من يهدد أمن المدينة ولو كان أقرب قريب.

الثاني: اقتراح المصالحة مع قبيلة غطفان لصدها عن المدينة:

اقترح النبي ﷺ على الأنصار عقد المصالحة مع غطفان زمن الأحزاب حفاظا على المدينة من خطر التحالف الكبير الذي تقوده قريش، والذي جيَّشت له عددا من قبائل الأعراب الراغبة في خيراتها، فرأى ﷺ أنَّ عقد المصالحة مع أكبر تلك القبائل وإعطائها شيئًا مما تهدف إليه سوف يُفرِّقهم؛ فتسلم المدينة من الخطر المتوقع، قال أبو هريرة رضي الله عنه:

(١) زاد المعاد (٣ / ٥٨).

(٢) هم بنو ضَمْرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، بطن كبير وبلادُهم سيف البحر، منهم جماعة من الصحابة والتابعين والعلماء. ينظر: عجالة المبتدي، للحازمي (ص٨٣).

(٣) ينظر: الرحيق المختوم (ص٢١٧، ٢١٨، ٢٢٠).

جاء الحارث الغطفاني إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، شاطرنا تمر المدينة؟ قال: حتى استأمر السعود. فبعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وسعد بن الربيع وسعد بن خيثمة وسعد بن مسعود ﷺ فقال: «**إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ الْعَرَبَ قَدْ رَمَتْكُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، وَإِنَّ الْحَارِثَ يَسْأَلُكُمْ أَنْ تُشَاطِرُوهُ تَمْرَ الْمَدِينَةِ، فَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَدْفَعُوا إِلَيْهِ عَامَكُمْ هَذَا، حَتَّى تَنْظُرُوا فِي أَمْرِكُمْ بَعْدُ؟**» قالوا: يا رسول الله، أَوحيٌ من السماء فالتسليم لأمر الله، أو عن رأيك أو هواك فرأينا تبع لهواك ورأيك؟ فإن كنت إنَّما تريد الإبقاء علينا فوالله لقد رأيتنا وإيَّاهم على سواء ما ينالون منَّا تمرة إلا بشراء أو قرى[(١)].

ومنه عُلم أنَّ هذا الرأي إنَّما كان بقصد تحقيق الأمن الخارجي، وأنَّه أراد بذلك تفريق الجيوش المتحزبة لتبقى المدينة -بيضة الإسلام- محفوظة.

الثالث: مشروعية الجهاد في سبيل الله:

شرع الله تعالى جهاد طلب العدو كما شرع عقد الصلح والمعاهدات، لذا قاتل النبي ﷺ بعض قبائل اليهود لما غدروا به ونقضوا عهدهم، وأجلى البعض الآخر عن المدينة لما صاروا خطرًا يهدد الأمن، فعن ابن عمر ﷺ قال: حاربت النضير وقريظة، فأجلى بني النضير وأقرَّ قريظة ومنَّ عليهم، حتى حاربت قريظة فقتل رجالهم وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين إلا بعضهم لحقوا بالنبي ﷺ فأمَّنهم وأسلموا، وأجلى يهود المدينة: بني قينقاع، ويهود بني حارثة، وكل يهود المدينة[(٢)]، وقاتل قريشًا في بدر وأحد، حتى كفَّ الله شرَّها عن المدينة بعد غزوة الأحزاب، حينها قال ﷺ: «**الآن نغزوهم ولا يغزوننا نحن نسير إليهم**»[(٣)].

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير، حديث رقم (٥٤٠٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: فيه محمد بن عمرو حديثه حسن، وبقية رجاله ثقات، حديث رقم (١٠١٤١).

(٢) أخرجه البخاري، باب: حديث بني النضير، حديث رقم (٤٠٢٨).

(٣) المصدر نفسه، باب: غزوة الخندق، حديث رقم (٤١١٠).

المقصد الرابع: وقاية المجتمع من الاضطراب:

الاضطراب: التحرك على غير انتظام، وضرب الشيء بعضه بعضًا[(١)]. والمراد أنَّه قد يقع في المجتمع أحداث ومشكلات ونزاعات أو أقوال وتصرفات تكون ذات آثار اجتماعية غير مرغوبة، وتحمل في طياتها مخاطرة تستدعي التثبت والتأنِّي في اتخاذ القرارات، حتى لا يضطرب المجتمع وتنتشر الفوضى والاختلاف والتنازع؛ لذا كان النبي ﷺ دائما شديد التثبت والتأني في اتخاذ القرارات ذات الآثار الاجتماعية الكبيرة، ومن أبرز الشواهد الدالة على ذلك أنَّه لما أحاطت الأحزاب بالمدينة افتقد النبي ﷺ حلفاءه من اليهود، وبلغه عنهم ما يُريب توجَّس الغدر، فأرسل سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وعبد الله بن رواحة وخوَّات بن جُبَير وقال لهم: «**انْطَلِقُوا حَتَّى تَنْظُرُوا، أَحَقٌّ مَا بَلَغَنَا عَنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ أَمْ لَا؟ فَإِنْ كَانَ حَقًّا فَالْحَنُوا لِي لَحْنًا أَعْرِفُهُ، وَلَا تَفُتُّوا فِي أَعْضَادِ النَّاسِ، وَإِنْ كَانُوا عَلَى الْوَفَاءِ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فَاجْهَرُوا بِهِ جَهْرًا لِلنَّاسِ**»، فخرجوا حتى أتوهم، فوجدوهم على أخبث ما بلغه عنهم، ونالوا من رسول الله ﷺ وقالوا: لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد، فشاتمهم سعد بن عبادة وشاتموه، وكان رجلًا فيه حدّة، فقال له سعد بن معاذ: دع عنك مشاتمتهم، فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة. ثم أقبل الرسل إلى النبي ﷺ، فسلموا عليه، ثم قالوا: عضل والقارة: أي كغدر عضل والقارة بأصحاب رسول الله ﷺ أصحاب الرجيع[(٢)].

فهنا نجد أنَّ النبي ﷺ لم يسارع في مؤآخذتهم إلا بعد التثبت من غدرهم، إضافةً إلى إخفائه أمرهم عن الناس حتى لا يفت في أعضادهم وهم في أشد الحاجة للثبات في

---

(١) ينظر: المعجم الوسيط (١/ ٥٣٦).

(٢) أخرجه الطبري في التفسير (٢٠/ ٢١٨)، وذكره أيضًا عامة أهل السير. ينظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٢١).

مقابلة الأحزاب، ثم أخَّر محاسبتهم حتى انصرفت الأحزاب وولى الخطر وعاد الأمن للمدينة.

ونما إلى النبي ﷺ أخبار عن بني المصطلق من خزاعة وأنهم ينوون غزو المدينة، فأرسل بريدة بن الحصيب رضي الله عنه للتأكد من الأمر، فلقي الحارث ابن ضرار فكلَّمه وتبين له عزمه ومن وافقه من العرب على حرب رسول الله ﷺ، فعاد فأخبر النبي ﷺ بخبرهم، فسار إليه النبي ﷺ في أصحابه، فلما بلغهم خبر مسيره تفرقت جموع العرب عن الحارث، فأغار عليهم النبي ﷺ وهم غارُّون، فقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم وغنم أموالهم(١). فلم يشأ النبي ﷺ قتالهم إلا بعد التثبت مما بلغه عنهم؛ فأرسل من جاءه بخبرهم وأكَّد نيتهم غزوه، فسار إليهم عند ذلك وكان النصر.

ولمَّا قال المنافقون ما قالوا في عائشة رضي الله عنها، وراج ذلك وأكثروا فيه، وسقط معهم بعض الصحابة ممن لا يُشك في إيمانهم، تربص النبي ﷺ شهرًا لم يُظهر الأمر لصاحبة الشأن؛ لئلا يسبق بقول أو فعل لم يتأكد من استحقاقها له، واستشار في ذلك بعض أصحابه فلم يذكروا إلا خيرًا، حتى نزلت براءتها من الله تعالى، عندها أقام الحدَّ على المؤمنين تطهيرًا لهم، وترك المنافقين(٢).

فما هذه الشواهد إلا دليل على حرص النبي ﷺ على المحافظة على المجتمع من الاضطراب والاختلاف والتنازع الذي إن وجد فسيؤدي بهم إلى الضعف والهوان على الناس وتسلط الأعداء والخصوم عليهم.

(١) أخرجه البخاري، باب: من ملك من العرب رقيقًا، حديث رقم (٢٥٤١)، وينظر: زاد المعاد (٣/ ٢٢٩).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري، باب: تعديل النساء بعضهن بعضًا، حديث رقم (٢٦٦١)، ومسلم، باب في حديث الإفك، حديث رقم (٢٧٧٠).

المقصد الخامس: عمارة الأرض واستثمار خيراتها:

اقتضت حكمة الله تعالى إنزال آدم ؛ إلى الأرض؛ ليكون خليفة فيها بذريته التي تعمر الأرض وتعبده عليها وتقيم شرعه وتمتثل أوامره وتجتنب نواهيه، فهي حكمة الله التي أرادها من إنزاله، ونجد النبي ﷺ يعتني بالأرض لما فيها من النفع العائد على المجتمع المسلم، وقد اتخذت هذه العناية أوجها متعددة منها:

أولًا: الحث على عمارة الأرض:

إنَّ عمارة الأرض جزء من مهمة الاستخلاف التي أنزل الله تعالى آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الأرض لأجلها[١]، قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٣٠].

وقد أمرَ النبي ﷺ بزرع الأرض واستنباتها حتى مع دنو القيامة وقرب انقطاع الحياة فقال: «**إِنْ قَامَتْ عَلَى أَحَدِكُمُ الْقِيَامَةُ، وَفِي يَدِهِ فَسِيلَةٌ فَلْيَغْرِسْهَا**»[٢]. قال المناوي رحمه الله: «الحاصل أنَّه مبالغة في الحث على غرس الأشجار وحفر الأنهار لتبقى هذه الدار عامرة إلى آخر أمدها المحدود المعدود المعلوم عند خالقها، فكما غرس لك غيرك فانتفعت به فاغرس لمن يجيء بعدك لينتفع وإن لم يبق من الدنيا إلا صبابة»[٣]. وليس المقصود غرس الأشجار فقط ولكنها خرجت مخرج الغالب إذ لا قوام للحياة البشرية إلا بالطعام، وأساس الطعام وأيسره وأقربه من الإنسان ما تمنحه الأشجار له من أطايب ثمارها.

---

(١) الاستخلاف الحقيقي له جانبان: عمارة الأرض العمارة الحسية، وإقامة شريعة الله فيها.
(٢) أخرجه أحمد في المسند، حيث رقم (١٢٩٠٢)، وصححه الأرناؤوط.
(٣) فيض القدير (٣/ ٣٠).

ومرَّ النبي ﷺ على زرع لأم مبشر الأنصارية رضي الله عنها فقال لها: «**مَنْ غَرَسَ هَذَا النَّخْلَ؟ أَمُسْلِمٌ أَمْ كَافِرٌ؟**»، فقالت: بل مسلم. فقال: «**لَا يَغْرِسُ مُسْلِمٌ غَرْسًا، وَلَا يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلَ مِنْهُ إِنْسَانٌ، وَلَا دَابَّةٌ، وَلَا شَيْءٌ، إِلَّا كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً**»[(١)]. قال ابن حجر رحمه الله: «في الحديث: فضل الغرس والزرع، والحض على عمارة الأرض، ويستنبط منه اتخاذ الضيعة[(٢)] والقيام عليها»[(٣)].

ثانيًا: إبرام عقود المزارعة على الأراضي:

لما فتح الله تعالى على نبيه ﷺ عددًا من البلدان الزراعية أمر بدوام عمارتها ليستمر نفعها للناس، ومن ذلك أنَّه صالح أهل خيبر بعد فتحها على زراعة الأرض، فعن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ لما ظَهَرَ على أهل خيبر أراد أن يُخرج اليهود منها، فسأل اليهودُ رسول الله ﷺ أن يتركهم على أن يُكفوا العمل ولهم نصف الثمر. فقال رسول الله ﷺ: «**نُقِرُّكُمْ عَلَى ذَلِكَ مَا شِئْنَا**». فأُقرُّوا حتى أجلاهم عمر في إمارته إلى تيماء وأريحا[(٤)].

وكذلك فعل مع أهل فدك حين صالحهم على زراعة أرضها، قال المباركفوري رحمه الله: «لما بلغ رسول الله ﷺ إلى خيبر، بعث مُحَيِّصَة بن مسعود[(٥)] إلى يهود فَدَك ليدعوهم إلى

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري، باب: فضل الزرع والغرس، حديث رقم (٢٣٢٠) ومسلم، باب: فضل الغرس والزرع، حديث رقم (١٥٥٣).

(٢) **الضيعة:** هي الأرض المغلة والعمل النافع المربح. ينظر: المعجم الوسيط (١/ ٥٤٧).

(٣) فتح الباري (٥ / ٤).

(٤) متفق عليه، أخرجه البخاري، باب: ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم، حديث رقم (٣١٥٢)، ومسلم، باب: المساقاة، حديث رقم (١٥٥١).

(٥) هو: محيصة بن مسعود بن كعب بن عامر الأوسي الأنصاري، صحابي، أسلم قبل الهجرة، وبعثه رسول الله ﷺ بعد الهجرة إلى أهل فدك يدعوهم إلى الإسلام، شهد أحدًا والخندق وما بعدهما من المشاهد كلها، أسلم قبل أخيه حويصة، وعلى يده أسلم أخوه. ينظر: تهذيب التهذيب (١٠/ ٦٠).

الإسلام، فأبطأوا عليه، فلما فتح الله خيبر قذف الرعب في قلوبهم، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يصالحونه على النصف من فدك بمثل ما عامل عليه أهل خيبر، فقبل ذلك منهم»[(١)].

فإنَّ هذه الأفعال توحي لنا أنَّ عمارة الأرض كانت مقصدًا من مقاصد النبي ﷺ في دعوته وسياسته للناس، وتأمين روافد اقتصادية تستغني به أمته عن غيرها من الأمم.

(١) الرحيق المختوم (ص٣٨٤)، وينظر: فتح الباري (٦/ ٢٠٣).

المطلب الثاني

التطبيقات المعاصرة للمقاصد الدعوية المتعلقة بالمجتمع

- الأمن مسؤولية الجميع؛ لذا تجب المشاركة في حفظ الأمن الداخلي والتعاون مع الجهات المسؤولة عنه والسعي لتحقيقه، وفي حالة الاضطراب فيجب القيام بحماية الناس وحفظ أمنهم، وإن وقع ما يهدد الأمن من الخارج فالواجب المشاركة مع الجهات المسؤولة والقيام بواجب الدفاع عن النفوس والأعراض والأموال والبلدان، وبذل قصارى الجهد في حفظ المجتمع من الخلل الاضطراب.

- وجوب الإصلاح بين الناس وإزالة ما يطرأ من تنابز وخصام واختلاف، وإنشاء المجالس والجمعيات التي تهتم بذلك، وكذلك إنشاء المحاكم وتأهيل القضاة الشرعيين وتدريبهم لفصل الخصومات التي تقع بين الناس بالعدل الذي أمر الله تعالى به.

- لزوم إشاعة الاحتساب على المنكرات والمخالفات، والمطالبة بمعاقبة أصحابها، مع شكر الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر، وبيان جهودهم ودورهم في حفظ المجتمع.

- الفهم الدقيق للواقع الذي تعمل فيه الدعوة من حيث: الأنظمة الحاكمة، والولاءات المجتمعية، والخطط المستقبلية، والمشاركة الفاعلة في ذلك كله بحسب الإمكان؛ لتحقيق المصالح للمسلمين ما لم تكن مخالفة لشريعة الله.

- إزالة كل ما من شأنه تفريق الناس والتحذير منه، كالعصبيات للبلدان أو القبائل أو الأجناس واللغات، وإشاعة رابطة الإسلام والأخوة الايمانية وبيان مكانتها.

- إنشاء المجالس التي تحوي العلماء والوجهاء للمشاورة في كل ما يطرأ على المجتمع وتشخيص المشكلات واقتراح الحلول المناسبة لها.

- إنشاء دور الإيواء للفقراء والغرباء ومن لا عائل لهم، وتفقد حاجتهم وتقديم العون المادي والمعنوي لهم؛ حتى يغنيهم الله من فضله.

- تقديم سائر الخدمات الاجتماعية والتعليمية والطبية للمسلمين ولغيرهم رغبة في تأليف قلوبهم.

- المشاركة في الانتخابات وعقد التحالفات بقصد تحقيق مكاسب للإسلام والمسلمين، أو كفِّ الشرِّ ودفعه أو تخفيف الضرر عنهم بحسب الإمكان.

- الرقي في أساليب الخطاب الدعوي بما يتناسب مع ثقافات المدعوين في كل مجتمع، مع المحافظة على الثوابت، والاستفادة من الوسائل التقنيَّة الحديثة؛ لإيصال الدعوة إلى أكبر عدد من أفراد المجتمع.

الخاتمة

إنَّه بعد استكمال هذا البحث الذي اعتمدت فيه على السيرة النبوية ملتمسًا الغايات التي كانت محلَّ عناية النبي ﷺ في دعوته مستنبطا من خلالها المقاصد الدعوية التي من شأنها ترشيد الدعوة المعاصرة، ولقد خلصت منه ببعض النتائج والتوصيات، وهي على النحو التالي:

أولًا: النتائج:

- أنَّ للدعوة إلى الله تعالى مقاصد خاصة كسائر أبواب العبادات ينبغي استنباطها ومراعاتها من قِبل الدعاة إلى الله.

- عناية النبي ﷺ الدائمة المستمرة بالدعوة إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة ونبذ كل طاغوت يُعبد من دونه سبحانه.

- كان الهدف الأول للدعوة النبوية تعبيد الناس لله تعالى، ليكونوا عبادًا له اختيارا كما أنهم عباد له اضطرارًا، وتوجيهها لجميع المكلفين رجالًا ونساءً وأطفالًا، دون تفريق بين قوي وضعيف، ولا غني وفقير ولا وجيه ووضيع؛ لإخراجهم من ظلمات الجهل والشرك إلى نور الإيمان والتوحيد والطاعة.

- كانت دعوة النبي ﷺ واضحة الهدف والمضمون والغاية، وهذا ظاهر في كل المواقف الدعوية النبوية.

- شمول الدعوة النبوية لجميع جوانب الاصلاح بدءًا من إصلاح العقيدة وانتهاء بإصلاح أمور الدنيا وتنظيمها؛ لتكون متوافقة متجانسة تقود الناس إلى الخير في الدنيا والآخرة.

- كان تقوية الدعوة هدفا واضحا في الدعوة النبوية، وذلك بالاستفادة من كل الوسائل الممكنة والأشخاص والأنظمة وغيرها.

- العناية بالأتباع ورفع مستواهم الإيماني والعلمي والأخلاقي، وعدم الاكتفاء بدخولهم الإسلام؛ بل لا تزال الدعوة ترعاهم وتزكيهم؛ ليرتقوا في مراتب الكمال البشري شيئًا فشيئًا.

- العناية بالثوابت والمحكمات الدينية وعدم المساس بها أو التخلي عنها، إذ ببقائها يبقى الدين وبذهابها يذهب ويضمحل فلا يبقى منه إلا الاسم فقط، وهذا ضلال مبين.

- عناية النبي ﷺ باللحمة الداخلية بين المسلمين والحرص الدائم على اجتماع الكلمة ووحدة الصف والسعي لذلك بكل سبيل.

- أهمية الأمن في المجتمع المسلم، والدعوة مسؤولة عن المساهمة بدور فاعل في تحقيقه.

- حرص النبي ﷺ على دعوة المخالفين بكل الوسائل والأساليب الممكنة، ليحيا من حيَّ عن بينة ويهلك من هلك عن بينة.

- أنَّ جوانب استفادة الدعوة المعاصرة من دعوة النبي ﷺ كثيرة متعددة، وهي كفيلة بترشيدها وحلِّ كثير من مشكلاتها الحديثة.

ثانيًا: التوصيـــة:

أوصي الباحثين بدراسة المقاصد الدعوية الخاصة المتنوعة بتنوع أصناف المدعوين، كمقاصد دعوة النساء، والمنافقين، والأعراب، والمتميزين... إلخ.

فهرس المصادر والمراجع

١) القرآن الكريم.

٢) الأحكام الشرعية الكبرى، عبد الحق الأشبيلي، ط١، مكتبة الرشد، السعودية، ١٤٢٢هـ.

٣) الأسس العلمية لمنهج الدعوة الإسلامية، أ.د: عبدالرحيم المغذوي، ط١، دار الحضارة، الرياض، ١٤٢٩هـ.

٤) الاشتقاق، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد، ت: عبد السلام محمد هارون، ط٣، مكتبة الخانجي، القاهرة.

٥) الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٤١٢هـ.

٦) أعلام النبوة، علي بن محمد بن حبيب الماوردي، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٧م.

٧) الأعلام، خير الدين بن محمود الزركلي، ط٥، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م.

٨) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، ط٢، دار الفكر، بيروت.

٩) البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ، ط١، دار صعب، بيروت، ١٩٦٨م.

١٠) تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد المرتضى الزَّبيدي، ت: مجموعة من المحققين، ط: بدون، دار الهداية، مكان النشر وسنته: بدون.

١١) تاريخ دمشق، ابن عساكر، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٤١٩هـ.

١٢) التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، ط: بدون، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤هـ.
١٣) تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٤هـ.
١٤) التوقيف على مهمات التعاريف، محمد عبد الرؤوف المناوي، ط١، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٤١٠هـ.
١٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر ابن سعدي، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ.
١٦) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري، ت: أحمد محمد شاكر، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ.
١٧) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، ت: شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، ط٥، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٤هـ.
١٨) الجامع المسند الصحيح المختصر (صحيح البخاري)، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق مجموعة من طلبة العلم، ط٣، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٢١هـ.
١٩) الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة، زكريا بن محمد بن زكريا الأنصاري، ط١، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٤١١هـ.
٢٠) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصبهاني، ط٤، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ.
٢١) الخصائص الكبرى، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ.

٢٢) الدرر في اختصار المغازي والسير، أبو عمر ابن عبد البر، ط١، وزارة الأوقاف المصرية، القاهرة، ١٤١٥هـ.

٢٣) دلائل النبوة، أبو الحسن البيهقي، ط١، دار الكتب العلمية ودار الريان للتراث، ١٤٠٨ هـ.

٢٤) دلائل النبوة، إسماعيل بن محمد الأصبهاني، ط١، دار طيبة، الرياض، ١٤٠٩هـ.

٢٥) الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، ط٢، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٢٠هـ.

٢٦) رسالة الجهاد في سبيل الله، عبدالرحمن بن ناصر ابن سعدي، مطبوعة ضمن المجموعة الكاملة للمؤلف، مركز صالح الثقافي، عنيزة، ١٤١١هـ.

٢٧) الروض المعطار في خبر الأقطار، محمد بن عبد المنعم الحِميري، ط٢، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ١٩٨٠م.

٢٨) روضة الأنوار في سيرة النبي المختار، صفي الرحمن المباركفوري، ط٣، دار السلام، الرياض، ١٤٢٤هـ.

٢٩) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، ت: شعيب وعبدالقادر الأرناؤوط، ط١٤، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٧هـ.

٣٠) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، محمد بن يوسف الصالحي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٤هـ.

٣١) السحر الحلال في الحكم والأمثال، أحمد الهاشمي، ط: بدون، دار الكتب العلمية، بيروت. سنة النشر: بدون.

٣٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، ط١، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٢هـ.

٣٣) سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، تعليق وأحكام محمد ناصر الدين الألباني، ط٢، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٢٩هـ.

٣٤) سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، تعليق وأحكام محمد ناصر الدين الألباني، ط٢، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٢٩هـ.

٣٥) سنن البيهقي الكبرى، أحمد بن الحسين البيهقي، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ.

٣٦) سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، تعليق وأحكام محمد ناصر الدين الألباني، ط٢، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٢٩هـ.

٣٧) سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذَهَبي، ت: مجموعة محققين، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٣٨) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، د.مهدي رزق الله، ط١، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات، الرياض، ١٤١٢هـ.

٣٩) السيرة النبوية، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، ط: بدون، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٥هـ.

٤٠) السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام المعافري، ت: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، ١٤١١هـ.

٤١) الصحاح؛ تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٠م.

٤٢) صحيح ابن حبان، أبو حاتم محمد بن حبان البستي، ت: شعيب الأرنؤوط، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٤هـ.

٤٣) صحيح الجامع الصغير وزياداته، محمد ناصر الدين الألباني، ط٣، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٨هـ.

٤٤) صحيح السيرة النبوية، محمد ناصر الدين الألباني، ط١، المكتبة الإسلامية، الأردن.

٤٥) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد بن منيع الزهري، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م.

٤٦) عجالة المبتدي وفضالة المنتهي في النسب، أبو بكر محمد بن موسى الحازمي الهمداني، ط٢، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٣٩٣هـ.

٤٧) غريب الحديث، أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي، ط: بدون، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٠٢هـ.

٤٨) فضائل الصحابة، الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٣هـ.

٤٩) فقه السيرة، أ.د.زيد بن عبدالكريم الزيد، ط٨، دار التدمرية، الرياض، ١٤٣٢هـ.

٥٠) فيض القدير شرح الجامع الصغير، عبد الرؤوف المناوي، ط١، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ١٣٥٦هـ.

٥١) قواعد وضوابط فقه الدعوة عند شيخ الإسلام ابن تيمية، د.عابد الثبيتي، ط٢، دار ابن الجوزي، الدمام، ١٤٣٠هـ.

٥٢) لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، ط١، دار صادر، بيروت، سنة النشر: بدون.

٥٣) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٤١٢هـ.

٥٤) مجموع الفتاوى، شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع: عبد الرحمن ابن قاسم، ط٣، دار الوفاء، ١٤٢٦ هـ.

٥٥) مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٩٣هـ.

٥٦) مرويات غزوة الخندق، إبراهيم بن محمد المدخلي، ط١، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٤٢٤هـ.

٥٧) المستدرك على الصحيحين ومعه تعليقات الذهبي، محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري، ت: مصطفى عبد القادر عطا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ.

٥٨) مسند أبي يعلى، أحمد بن علي بن المثنى الموصلي، ت: حسين سليم أسد، ط١، دار المأمون للتراث، دمشق، ١٤٠٤هـ.

٥٩) المسند الصحيح المختصر (صحيح مسلم)، مسلم بن الحجاج النيسابوري، تحقيق مجموعة من طلبة العلم، ط٣، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٢١هـ.

٦٠) المسند، الإمام أحمد بن حنبل، ت: شعيب الأرنؤوط، وآخرون، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت،١٤٢١هـ.

٦١) المصالح المرسلة، وجنات عبدالرحيم، ط١، جدة، دار المجتمع،١٤٢٠هـ.

٦٢) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، ط: بدون، المكتبة العلمية، بيروت.

٦٣) المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد الطبراني، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ.

٦٤) معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموي، دار الفكر، بيروت.

٦٥) المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، ط٢، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ١٤٠٤هـ.

٦٦) معجم اللغة العربية المعاصرة، أد. أحمد مختار عمر، ط١، عالم الكتب، لبنان، ١٤٢٩هـ.

٦٧) المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، ط٢، المكتبة الإسلامية، تركيا، سنة النشر: بدون.

٦٨) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا، ت: عبد السلام محمد هارون، ط: بدون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ.

٦٩) مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، علال الفاسي، ط٥، دار الغرب الإسلامي، المغرب، ١٩٩٣م.

٧٠) مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر بن عاشور، ط٢، دار النفائس، الأردن، ١٤٢١هـ.

٧١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، ط٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت،١٣٩٢هـ.

٧٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين الجزري، ت: علي بن حسن عبدالحميد، ط١، دار ابن الجوزي، الدمام، ١٤٢١هـ.

فهرس المحتويات

المقدمة ٥
الفصل الأول: المدخل إلى مقاصد الدعوة النبوية ٩
المبحث الأول: تعريف المقاصد الشرعية ١١
المطلب الأول: تعريف المقاصد ١١
المطلب الثاني: تعريف مقاصد الشريعة وأنواعها ١٢
المبحث الثاني: تعريف مقاصد الدعوة النبوية، والعهد النبوي ١٤
المطلب الأول: تعريف مقاصد الدعوة النبوية ١٤
المطلب الثاني: تعريف العهد النبوي، وأقسامه ١٨
الفصل الثاني: مقاصد الدعوة النبوية ٢٥
المبحث الأول: المقاصد الدعوية المتعلقة بكيان الدعوة وتطبيقاتها المعاصرة ٢٧
المطلب الأول: المقاصد الدعوية المتعلقة بكيان الدعوة ٢٧
المطلب الثاني: التطبيقات المعاصرة للمقاصد الدعوية المتعلقة بكيان الدعوة ٥٧
المبحث الثاني: المقاصد الدعوية المتعلقة بمضمون الدعوة وتطبيقاتها المعاصرة ٥٩
المطلب الأول: المقاصد الدعوية المتعلقة بمضمون الدعوة ٥٩
المطلب الثاني: التطبيقات المعاصرة للمقاصد الدعوية المتعلقة بالمنهج ٧٠
المبحث الثالث: المقاصد الدعوية المتعلقة بأتباع الدعوة وتطبيقاتها المعاصرة ٧٢
المطلب الأول: المقاصد الدعوية المتعلقة بأتباع الدعوة ٧٢
المطلب الثاني: التطبيقات المعاصرة للمقاصد الدعوية المتعلقة بأتباع الدعوة ١٠١

المبحث الرابع: المقاصد الدعوية المتعلقة بالمخالفين للدعوة وتطبيقاتها المعاصرة ١٠٣
المطلب الأول: المقاصد الدعوية المتعلقة بالمخالفين للدعوة ١٠٣
المطلب الثاني: التطبيقات المعاصرة للمقاصد الدعوية المتعلقة بالمخالفين ١١٢
المبحث الخامس: المقاصد الدعوية المتعلقة بمجتمع الدعوة وتطبيقاتها المعاصرة ١١٤
المطلب الأول: المقاصد الدعوية المتعلقة بمجتمع الدعوة ١١٤
المطلب الثاني: التطبيقات المعاصرة للمقاصد الدعوية المتعلقة بالمجتمع ١٢٩
الخاتمة ١٣١
فهرس المصادر والمراجع ١٣٣
فهرس المحتويات ١٤٠

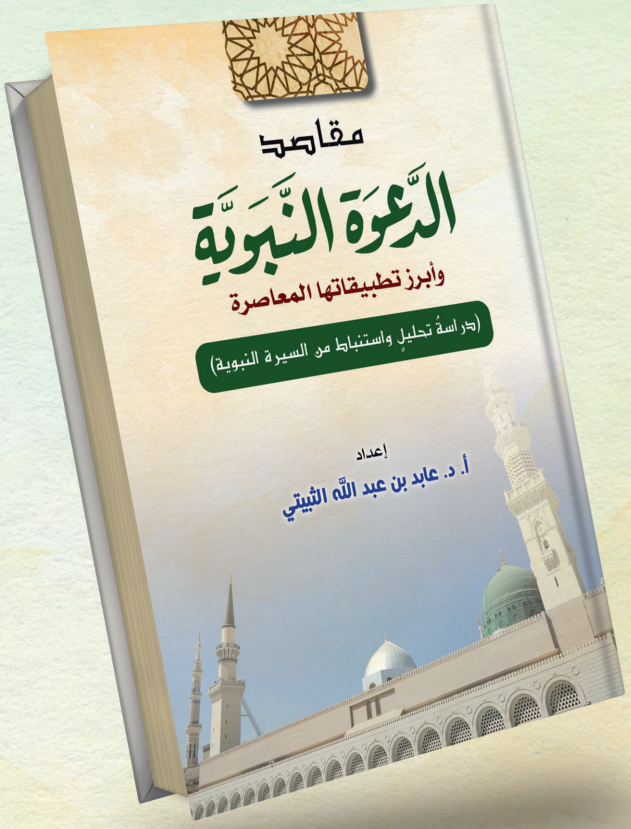

978-603-04-6358-9